المَمَالِيك
بينَ نارِ الشامِ
وجنة المصريين
تجميع وإعداد
الاستاذ / محمد أمين
أستاذ التاريخ الإسلامي

المماليك

بين نار الشام وجنة المصريين

إعداد

أ / محمد أمين علي
أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي

مقدمة

" الحمد لله الأوّل بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، المنفرد بقدرته، المتعالي في سلطانه؛ الذي لا تحويه الجهات، ولا تشعته الصفات؛ ولا تدركه العيون، ولا تبلغه الظنون، البادي بالإحسان، العائد بالإمتنان؛ الدال على بقاءه بفناء خَلقه، وعلى قدرته بعجز كل شيء سواه، المغتفر إساءة المذنب بعفوه، وجهل المسيء بحلمه، الذي جعل معرفته اضطرارًا، وعبادته اختيارًا، وخلق الخلق من بين ناطق معترف بوحدانيته، وصامت متخشع لربوبيته، لا يخرج شيء عن قدرته، ولا يعزب عن رؤيته، الذي قرن بالفضل رحمته، وبالعدل عذابه، فالناس مدينون بين فضله وعدله، آذنون بالزوال، آخذون في الإنتقال، من دار بلاء إلى دار جزاء .

أحمده على حلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته؛ فإنه رضِي الحمد ثمنًا لجزيل نعمائه، وجليل آلائه، وجعله مِفتاح رحمته، وكفاء نعمته، وآخر دعوى أهل جنته بقوله عز وجل : (وآخِرُ دَعْوَاهُم أنِ الحَمْدُ لله ربِّ العَالمين).

وصلى الله على سيدنا محمد النّبي المكرّم، الشافع المقرّب، الذي بُعث آخرًا واصْطُفِيَ أولا ً ، وجـ َعلنا من أهل طاعته، وعتقاء شفاعته .

وبعد :

فإن أهل كل طبقة، وجهابذة كل أمة، قد تكلموا في الأدب وتفلسفوا في العلوم على كل لسان، ومع كل زمان؛ وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل مجهوده في اختصار بديع معاني المتقدمين، واختيار جواهر ألفاظ السالفين، وأكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصارًا، والمتخيّر إلى اختيارًا ".

حديثنا في هذا الكتاب عن الشق التاريخي للدولة المملوكية أو دولة المماليك وهي دولة أقيمت على أنقاض الدولة الأيوبية في مصر وامتدّت حتى الحجاز وبلاد الشام في سنة (648 هـ / 1250م).

علامات التواريخ :

التواريخ ما بين القوسين وبينهما علامة (الهجري / الميلادي)

هذه العلامة (/) تعني الموافق

والتواريخ ما بين القوسين (من - إلى)

هذه العلامة (-) تعني من - إلى بالهجرية أو من وإلى بالميلادية .

* * * *

ينقسم العصر المملوكي إلى دولتين شهيرتين ذاع صيتيهما في العالم الإسلامي أجمع، ومن هاتين الدولتين من السلاطين من بلغت شهرته بلاد السند والهند، وبلاد الروم والأرمن، وبلاد الروس والمجر حتى المغول والبربر فدولتنا الأولى هي دولة المماليك البحرية والتي قامت ونهضت على أنقاض العصر الأيوبي سنة (648هـ /1250م) حتى سنة (784هـ / 1382م)، وجنس المماليك البحرية يعود إلى المغول والترك، أما العصر المملوكي الثاني فهو عصر المماليك البرجية (الجراكسة)، وهذه الدولة تلت الدولة البحرية بعد سقوطها مباشرةً من سنة (784هـ /1382م) حتى سنة (923هـ / 1517م) وكان هؤلاء المماليك البرجية من أصل جركسي وهم خليط أوروبي آسيوي دون تحديد دولة معينة لكثرة منابعهم وتعدد أصولهم، وسقطت هذه الدولة البرجية بعد معركة دامية في قرية الريدانية (العباسيّة الآن) بالقرب من محافظة القاهرة نتج عنها سقوط مصر في قبضة السلطان العثماني سليم الأول، وسيتم عرض الدولتين بالتفصيل مُشار إلى المراجع والمصادر في نهاية الكتاب والله ولي التوفيق.

الكاتب
محمد أمين
تحريرًا في 1 يوليه (تموز) لعام 2018 م
الأسكندرية

تعريف المملوك لغةً واصطلاحًا :

المملوك هو العبد (الرّق) الأبيض الذي لا يملك نفسه ولا أمره وسُبي ولم يُملك أبواه، ومصطلح المماليك نتج عن أصول العبيد (الرقيق) المحاربين البيض، وكانوا يملأون أسواق النخاسة - السوق الذي يُباع فيه المملوك أو الجارية - في تركستان وبلاد ما وراء النهر والقوقاز مما جعلهم على مرأى ومسمع من الجميع، فكان الخلفاء العباسيين لأوائل قد استقدموا هذه العناصر المحاربة بالشراء من هذه الأسواق أو وصلوهم كأسرى حرب ومنهم من كانوا هدايا للخليفة، وبسبب بسالتهم وشجاعتهم الحربية جعل الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ) والخليفة المأمون (197-218هـ) المماليك حرسًا لهم وقادةً لجيوشهم في سراياهم وغزواتهم نحو بلاد الفرس والروم، وفي عهد المعتصم (218-

227هـ) ازداد نفوذ المماليك وطغوا على المظهر العام للجيش حيث استقدم منهم إلى بلاطه ما بلغ الخمسين ألف مملوك (بنصيحة أمه التركية الأصل) وبنى لهم مدينة سُر من رأى (سامراء العراقية الآن)، وكانوا قد وصلوا لمقاليد الحكم بصورة غير مباشرة بسبب ضعف الخليفة العباسي وتراجع نفوذه بالمقارنة بنفوذهم أصبح التناسب عكسيًا بين حكم المماليك وحكم الدولة العباسية .

ومن الدول التي تلت الخلافة العباسية وجاءت بالمماليك الدولة الطولونية فاستقدم أحمد بن طولون (254-292هـ) من المماليك الديالمة أربعة وعشرين ألف مملوك، والإ خشيديون على يد مؤسسها محمد بن طُغج الإخشيدي (323-358هـ) ثمانية آلاف منهم، وكذلك الفاطميون (358-567هـ) بعدما اعتمدوا على المغاربة والسودان وجاءوا بالروم والصقالبة والأرمن في الجيش رأى الخليفة الفاطمي المستنصر(427-478هـ) أن لا خير في الجيش دون الإعتماد الكلي على المماليك سيرًا على خطا ومنهج سابقيه .

بعد تلك الفترة كانت الدولة الأيوبية قد وصلت لمنالها ومرادها من المشرق الإسلامي وعظُمت قوتها فكان للمماليك نصيب الأسد من السلاطين الأيوبيين فكانوا حرسًا خاصًا وقادةً لجيوشهم لمّا رأوا منهم جدارة ودهاء في العمليات الحربية، فكان الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبًا عن والده الملك الكامل في حصن كيفا سنة (630هـ/1232م)، وفي سنة (632هـ/1234م) كان الصالح منوبًا عن والده في البلاد الشرقية من الحكم الأيوبي مما في ذلك آمد وحرّان والرقة والرّها وسَروج ورأس عين وغير ذلك مما يتبعها من بلدان .

وعلى حين غرة توفي الملك الكامل بن (الملك العادل أخو الناصر صلاح الدين الأيوبي) سنة (635هـ/1236م) كان ينوب عنه في مصر ابنه العادل، وكانت حمص للملك المجاهد شيركوه الثاني، وكان حصن الكرك للملك الناصر داود بن المعظم عيسى، وبعلبك وبصرى للصالح إسماعيل بن الملك العادل ودمشق للملك الجواد بن مودود بن العادل، وحماة للملك المظفر تقي الدين، واشتعلت الحرب ودق الصراع بين بني أيوب عقب وفاة الكامل ودارت رحى الحرب بين الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل، فكانت جنود الصالح أيوب من الخوارزمية فاستمال الصالح إسماعيل قائدهم على أمل أن يعطيه ويؤمره مدينة إن آزره على عدوه الصالح أيوب فانضموا لإسماعيل فشد عليهم أيوب في القتال بمن بقي معه من جنوده المخلصين في حمص سنة (644هـ /1246م)، وفي أثناء الحرب وقبيل إعلان إنتصاره على إسماعيل كان الجنود الدمشقية قد تخلوا عن أيوب فقرر أن يستخدم فرقة جديدة يضمن ولائها وحبها له فقط فتكونت هذه الفرقة (المماليك البحرية) .

* * * *

تأسست هذه الفرقة المحاربة في الأراضي المصرية سنة (638هـ/1240م) من أشداء المماليك وأقواهم عقلا ً وجسدًا بعد تمكن الصالح من الإنفراد بحكم مصر، فقرر الصالح عزل مماليكه بعيدًا عن الأنظار وتدريبهم أولا ً على الإخلاص له فبنى قلعة على جزيرة الروضة لتكون مقرًا لحكمه في خلال ثلاث سنوات، فكانت جزيرة الروضة متنزهًا قديمًا للملوك والأمراء وبها مئات الأشجار والنخيل، فأمر الصالح بقطع أشجارها ونخيلها وهدم مبانيها حتى يتسن له إتمام بناء القلعة، فكان لهذه القلعة ستون برجًا من جميع الجهات، ومسجدًا كبيرًا لإقامة الشعائر الدينية، وبنى الصالح أسوارًا ضخمة لتحصين القلعة، وبنى دورًا للإقامة وأبنية بديعة لم تكن لملك من ملوك الإسلام قبله؛ حيث كان

الصالح متيم بالمعمار والمباني ويريد أن يرى ما حوله منهما على خير وجه، وريثما انتهى من تشييد القلعة حتى شحنها بالأسلحة والمعدات الحربية، واجهز صومعة للمأكل والغلال، وهجر مسكنه السابق(قلعة الجبل) لينزل بالقلعة الجديدة التي كان يُحيطها النيل من كل جانب فاصطحب معه أهله وحرمه ومماليكه(البحرية) .
يقول المؤرخ ابن تغري بردي " والصالح أيوب بدأ في شراء المماليك التُرك بصورة جنونية، و شَرع في تعليمهم وفضّلهم على الأكراد وأمّرهم وجعلهم بطانته وقربهم منه واحيطوا بدهليزه الخاص وأطلق عليهم المماليك البحرية " .
ويُشير المقريزي إلى تربية المماليك وإعدادهم وتدريبهم بدنيًا وعسكريًا ودينيًا وثقافيًا، فقد اشتراهم وهم صبية صغار فعلمهم القرآن الكريم والفقه والأذكار والحساب واللغة العربية حيث موطنهم التركي.
وأضاف المقريزي أن إذا ما يثبت المملوك مهارة عسكرية يتم ترقيته من رتبة إلى رتبة أعلى حتى يصبح من الأمراء "فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح، وتدرب على ركوب الخيل، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر هذا، ولهم جمع من الخدام وأكابر من رؤوس النوب، يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه عن حركاته وسكناته؛ فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو "الطواشي" أمير المماليك الذي هو مُسلم إليه، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنبًا أو ترك أدبًا من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة شديدة مؤلمة على قدر جُرمه وذنبه".
وذكر المقريزي في كتابه الخطط بعد حروبهم مع الصليبيين والتتر أنهم "كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل، ويردون من جار أو تعدّى".
وكتب المقريزي أيضًا في كتابه (السابق) وصية الملك الصالح نجم الدين لابنه توران شاه قائلا ً:
"وتوصى بالمماليك غاية الوصية، فهمُ الذين كنت أعتمد عليهم، وأثق بهم، وهم ظهري وساعدي، تتلطف بهم، وتطيب قلوبهم، وتوعدهم بكل خير، ولا تخالف وصيتي، ولولا المماليك ما كنت قدرت أن أركب فرسًا، فتكرمهم وتحفظ جانبهم " والمنصور قلاوون كان يعدهم ويعتبرهم أولاده، وهو القائل " كل الملوك عملوا شيئًا يذكرون به، ما بين مال وعقار، وأنا عمرت أسوارًا وحصونًا مانعة لي ولأولادي وللمسلمين وهم المماليك".
وفي زمن الأشرف خليل بن قلاوون سنة (689-693هـ) كان يُسمح لهؤلاء المماليك أن ينزلوا من طوابقهم ودورهم بالنهار على ألا يبيتوا بغيرها .
" وقال المستشرق وليم موير في كتابه "تاريخ دولة المماليك في مصر" نافيًا بدافع من الكراهية والحقد للمماليك على إثر طردهم الصليبيين من الشام وقاوموا التتار لأول مرة في عين جالوت سنة (658 هـ)، أن يكون المماليك مصريين وذكر أنهم طائفة أجنبية عن البلاد، لم تختلط بالمصريين أو تقترب منهم، والحق أن المماليك أصبحوا مصريين حتى النخاع، لا فرق بينهم وبين المصريين، حيث أوتي بهم ليستقروا في مصر مدى الحياة فلم يحدث أن واحدًا منهم قرر العودة لبلده سواء كان فقيهًا أو سلطانًا، وتكونت شخصياتهم وثقافتهم وطباعهم من المصريين فبها عاشوا وماتوا ولأجلها قاتلوا وقتلوا وبها دفنوا وأنجبوا أولادًا وافتخروا بنسبتهم إلى مصر وبعد النظر في مؤلفات أبناء

المماليك كابن تغري بردي، وابن دقماق وابن إياس وغيرهم تجد غناهم بحب مصر وإطلا قهم على الأمراء المماليك لقب (الأمراء المصريون) ويتكرر هذا اللقب في كل الأعمال التاريخية منذ قيام دولة المماليك حتى سقوطها عند المقريزي والجبرتي " .

* * * *

منذ حوالي تسعة قرون خلت كان لمصر دورًا مهمًا في حرب الصليبيين في بلاد الشام وتحديدًا منذ عام (491هـ/1097م)، فقرر الصليبيون أن يهدموا دور مصر الجهادي ضدهم وتوجيه ضربات إنتقامية فارسلوا حملتين إلى مصر أولاهما في عهد العادل الأيوبي سنة 614هـ وصلت إلى دمياط سنة 615هـ قادمة من عكا، ولما وصلوها عملوا الآلات والأبراج، ونزل الملك الكامل بالعادلية بالقرب من دمياط لتتصل الجند منه إلى دمياط لمنع الصليبيين المرور بأرضها، وطال القتل ما طال ولم يتغير على أهل البحر والنيل شيء، ولكن توفر العادل في جمادى الآخر سنة 615 فضعفت نفوس الناس، ولم يلق الفرنجة أحد على ضفاف النيل فغزو النيل وغنموا ما في عساكر المسلمين وبذلك أحاطوا بدمياط برًا وبحرًا .

حفر الصليبيون خندقًا يمنع وصول المسلمين إليهم، واشتد القتال بينهما فوقع فيهم الفناء والوباء قتلا ً وتحصيدًا، وتعذرت عليهم الأقوات والمدد فأكلوا الميتة والجيفة، وصبروا صبرًا لم يُسمع له مثيل في المقاومة، ودام حصار الصليبيون لهم حتى 27 من شهر شعبان سنة 616هـ، وبعد شدة البأس بهم والتنكيل بالقوة الصليبية الغاشمة سلموا المدينة على وعد بالأمان ولم يتوقف الصليبيون بل نكثوا عهدهم وداروا في البلد نهبًا وتقتيلا .

على الجانب الآخر أقام الملك الكامل بالقرب منهم وطلب المدد من أخويه المعظم عيسى أمير دمشق والأشرف موسى صاحب الجزيرة فتوجها إليه، وسار الفرنجة إليه من دمياط فناوشهم وارتفعت الروح المعنوية للجند المسلم بعدما وصلهم المدد والتموين للحرب، فأرسلوا رسلهم لبعضهم البعض راغبين في الصلح، فيا لهول ما عرضوه ؟! ، تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا واللاذقية وكل ما فتح صلاح الدين من بلدان، وتذهب كل أرواح الشهداء وأعمال الجهاد أدراج الرياح ويضيع صلاح الدين سدى ولا حول ولا قوة إلا بالله .. فرفض المسلمون مطالبيهم الرحيل دون شرط أو القتال حتى الموت .

واحتدم القتال بينهما فعبرت طائفة من المسلمين إلى الأرض التي عليها الصليبيون ففجروا النيل -جسوره- ولم يبق للفرنجة جهة يسلكونها إلا الواحدة الضيقة، فنصب المسلمون عليها الجسور وعبرت العساكر للجهة الأخرى فوصلت إلى المسلمين إمدادات بحرية بنفس توقيت وصول المدد الصليبي البحري، فانقض المسلمون على السفن الصليبية فوقعت في أيديهم وأدرك الفرنجة أنهم قد ضل سعيهم وخاب رجائهم ، فلما أدركتهم خيبة الأمل أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وتجمعوا للقيا المسلمين لعلهم يعودون إلى دمياط هروبًا من الإحاطة، ولكن حال الماء والوحل بين ذلك أن يتم فطلبوا من الكامل الأمان وتسليم دمياط دون شروط فقبل الكامل وأعطاهم الأمان حتى رحلوا عنها في عام 618هـ وأمكن الله النصر للمسلمين ظفرًا لم يكن في حسبانهم .

أما الحملة الثانية فهي سنة (647هـ/1249م) وتولى قيادة الصليبيين في سابع حملا تهم على مصر والشام لويس التاسع ملك فرنسا، وقد أثيرت هذه الحملة ضد المسلمين

بفعل ما صنعه السلطان الصالح نجم الدين أيوب لاستعادة القدس من قبضة الفرنجة سنة (642هـ/1244م)، ووقوع ثلاثين ألف قتيل في موقعة غزة والتي من ضراوتها سُميت ب(حطين الثانية)، وبعد هذه المعركة وحد الصالح مصر والشام تحت إمرته وحكمه سنة (644هـ/1246م)، مما أقلق البابوية واهتزت الكنيسة غاضبة ثائرة ودعا البابا لحملة فلم يستجب لها إلا غرور لويس التاسع، وبينما علم فريدريك الثاني بالأمر - عدو البابا وحليف الأيوبيين- أرسل أحد رجاله متخفيًا في زي تاجر إلى نجم الدين محذرًا إياه من توافد الحملة وحشد جيوشه لملاقاتهم، وأخبره الرسول أيضًا أن الاستعدادات تجري على قدم وساق بين البابا إنوسنت الرابع والملك الفرنسي منذ عام 1245م.
في خريف سنة (646هـ/1248م) أبحر الأسطول من ميناء مرسيليا إلى قبرص لينتظر لويس باقي قواته والدعم الذي سيستعين به من البابا، وفي 20 من شهر صفر 647هـ نزل لويس قبالة دمياط ولويس التاسع يخوض المياه الضحلة رافعًا سيفه ودرعه فوق رأسه لينسحب المدافعون وفر السكان مذعورين وسقطت دمياط دون قتال.
استقبل السلطان نجم الدين خبر سقوط دمياط بالجزع والألم، فأعدم عددًا من الفرسان الهاربين من المواجهة، ثم أمر بنقل عسكر الجنود لمدينة المنصورة ليكون بالقرب منهم واستعان الصالح ببنو كنانة وهم قوم مشهورون بالدفاع والبسالة وانتشرت في البلاد المحيطة لدمياط حرب العصابات اشترك مع بنو كنانة الأهالي في الدفاع ووقع الصليبيون بين قتيل وأسير وبينما اشتد القتال ودارت رحى الحرب كان السُل قد أهلك نجم الدين فتوفي في شهر شعبان سنة 647هـ/ 20 من نوفمبر(تشرين الثاني) 1249م.
المماليك البحرية ومواجهة الخطر الصليبي:
أثار خبر وفاة الصالح الذي تسلل لمسامع لويس أمامه فرصة سانحة لتوجيه ضربة خاطفة للمصريين فعبروا إلى المنصورة وتوالت القوات الصليبية في مهاجمتها بقيادة أخي لويس التاسع قاصدين القاهرة، فوصلوا إلى بحر أشمون ليلاقيهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، فقاتل هناك ببسالة حتى سقط شهيدًا، وبعد يقين خبر وفاة السلطان كان لزامًا على المماليك البحرية الدفاع عن مصر وطرد العدوان الصليبي منها إخلاصًا لمصر دون طمع من أي منهم في السلطنة من بعده فتركوهم يدخلوا المنصورة حتى تمكنت منهم الدنيا لهوًا ولعبًا فانهال عليهم المماليك قتلا ً حتى بلغ عدد القتلى ألفًا وخمسمائة وفرّوا هاربين.
وبعد أن حول المماليك الهزيمة إلى نصر محقق ارتفعت المعنويات بين صفوف الجيش الأيوبي وطاردوا الصليبيين حتى سحقوهم عند فارسكور ووقعوا بين قتيل وأسير حتى أسروا لويس التاسع نفسه وسيق مكبلا ً إلى دار ابن لقمان القاضي.
فظائع الصليبيون في الشرق الإسلامي:
مجزرة بيت المقدس:
" في أثناء الحملة الصليبية الأولى كان الصليبيون قد وصلت جيادهم إلى القدس وكانت في ذلك الوقت في أيدي المصريين، ففرض الصليبيون حولها الحصار، وقد قاومت القدس وأهلها مقاومة باسلة دامت أربعين يومًا، حتى أن الصليبيين اعترفوا أن عدد ضحاياهم قد جاوز ضعف عدد شهداء الحصار والمقاومة، ولكن سقطت القدس في أيديهم في 15 يوليو(تموز) سنة 1099م ".
" بعد ذلك بعدة أيام حدثت المجزرة الوحشية، ذُبح فيها الرجال والنساء والأطفال من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم ينضموا لهم، ويصف غوستاف لوبون هذه

المجزرة قائلا ً " لقد أفرط قومنا في سفك الدماء وبالأخص في هيكل سليمان، حيث لجأ إليه كثير من المسلمين والنصارى واليهود، وكانت جثث القرى تسبح في محيط من الدماء، ولم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب التعسف والتدمير والتنكيل التي اتبعوها، بل عقدوا مؤتمرًا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس، من المسلمين و اليهود ومن خرج عليهم من صليبي القدس، فأفنوهم عن آخرهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا طفلا ً ولا شيخًا ".

ويقول في هذا الحادث ابن خلدون " استباح الفرنجة بيت المقدس وأقاموا في المدينة أسبوعًا ينهبون ويدمرون، وأحصي القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعبّاد و الزهاد المجاورين فكانوا سبعين ألفًا أو يزيدون .. ".

ويسرد ويلز قائلا ً: "حدث ببيت المقدس مذبحة رهيبة، وكان دم المقهورين َيجري في الشوارع، حتى لقد كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم وهم راكبون، وعندما أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يبكون من فرط الفرح، وخاضوا الدماء التي كانت تسيل كالخمر في معصرة العنب، واتجهوا إلى الناووس ورفعوا أيديهم المضرجة بـ الدماء، يصلون لله شكرًا".

ويقول الأستاذ نقولا زيادة : " والحملة الصليبية الأولى، والفظائع التي ارتكبتها في طريقها وفي احتلال القدس ليست مما يُشرف، وقد تظهر لنا اتجاهات الصليبيين من خلا ل تصرفهم السيء مع مسيحيي فلسطين أنفسهم، فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم الكنائس والبيوت، فتبعثر المسيحيون في جهات فلسطين و شرق الأردن، و سار البطريرك إلى القاهرة ليعيش في حماية الفاطميين ".

* * * *

أثر وفاة الصالح على نشأة دولة المماليك البحرية :

بعد وفاة الصالح نجم الدين كتمت زوجته شجرالدر خبر موته عن الشعب المصري - ويعود أصل شجرالدر إلى أرمني أو تركي- وبعثت (أقطاي) وهو مقدم المماليك وأحد كبار أمرائهم لابنه المعظم توران شاه حيث كان منوبًا عن والده في بلاد الرافدين و الجزيرة الفراتية -العراق الآن- ليخلف أبيه على عرش السلطنة، فاصطحب مماليكه وعينهم في مناصب الدولة الرفيعة وأبعد المماليك البحرية فسجن بعضهم ونفى بعضهم حتى ضاقت عليهم الدنيا بما رحـ ُبت ومقتوا على توران شاه، كان في تلك الفترة يبزغ نجم أمير مملوكي يُدعى بيبرس؛ فاجتمع بيبرس مع المماليك القدامى ليوالوه فيما سيفعل بتوران شاه فبايعوه مقدمًا عليهم بعدما تخلص من أقطاي ليهاجم توران شاه في سنة 648هـ في شهرها المحرم عند فارسكور الموافق للثاني من مايو (آيار) سنة 1250م، فانقض عليه بيبرس بالسيف ليبتر أصابعه فهرب توران شاه إلى برج خشب في النيل؛ فتجمع المماليك البحرية وأضرموا النيران في البرج حتى ألقى بنفسه إلى النيل فانهالت عليه المماليك بالنشاب وقفز عليه بيبرس وتوسله توران شاه بالرحمة ولكن لا مفر، فقتله بيبرس بسيفه ليسقط توران شاه قتيلا ً غريقًا، وأعلن المماليك تنصيب شجرالدر على عرش مصر سلطانة وحاكمة في العام نفسه 1250م، وأصبحت أول سيدة تتولى حكم المسلمين في مصر والشام بمساعدة مماليك زوجها . في هذه الفترة حدثت هتافات معادية لشجرالدر على ولايتها للحكم وتلقبها بـأم الخليل الصالحية المستعصمية، فتدبرت أمرها وتنازلت عن الحكم لزوجها الجديد عز الدين أيبك بعد ثمانين يومًا من حكم مصر والشام .

* * * *

دولة المماليك البحرية

مصطلح الأتابك :

الأتابك هي كلمة تركية الأصل تعني الأمير الوالد، وهو الذي يتولى الحكم مع أمير قاصر السن، حتى يكبر ويشتدّ، فيتولى هو الحكم دون وصاية، وأحيانًا يترك الأتابك الحكم للصبي بعد أن يكبروأحيانًا يطيح بالصبي ويزيحه ويأخذ الحكم منه كما فعل سيف الدين قطز لمواجهة خطر المغول الذين استغلوا فرصة صغر سن المنصور علي بن أيبك واستولوا على الشام سنة 657 هـ، فاضطر قطز لخلع الصبي لينفرد بمواجهة التتارو سيفعلها قلاوون مع بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس لنفس السبب .

مصطلح الجاشنكير :

الجاشنكير تعني مُستطعم طعام و شراب السلطان للتأكد من خلوها من السُم .

" وتعاقب على حكم مصر من المماليك البحرية أربع وعشرون سلطانًا مملوكيًا وهم :

1- (المعز)، عز الدين أيبك (648 - 655 هـ) / (1250 - 1257م) والتي بلغت سبعة أعوام .

2- (المنصور) علي بن أيبك (655 - 657 هـ) حيث كان قطز أتابكًا له /(1257 - 1259 م) وبلغت فترة حكمه عامين ثم ازاحه قطز لخطر المغول .

3- (المظفر) سيف الدين قطز (657-658 هـ) / (1259 - 1260م) وبلغت عام واحد .

4- (الظاهر) ركن الدين بيبرس (658 - 676 هـ) / (1260 - 1277م)التي بلغت سبعة عشر عامًا .

5- (السعيد) بركة خان بن بيبرس (676 -678 هـ) / (1277 - 1279م) وبلغت عامين .

6- (العادل) بدر الدين سلامش بن بيبرس (678 / 1279م) فترة ثلاثة أشهر .

7- (المنصور) سيف الدين قلاوون (678 - 689 هـ) / (1279 - 1290م) وبلغت اثنتي عشرة سنة .

8- (الأشرف) خليل بن قلاوون (689 - 693 هـ) / (1290- 1293 م) وقد بلغت العامين .

9 - (الناصر) محمد بن قلاوون (الفترة الأولى) (693-694 هـ) / (1293- 1294م) بلغت عام ونصف .

10- (العادل) زين الدين كتُبغا (694 - 696هـ) / (1294 - 1296م)وبلغت العامين .

11- (المنصور) حسام الدين لاجين (696 - 698هـ) / (1296- 1298م)وصلت فترته إلى العامين .

12- (الناصر) محمد بن قلاوون (الفترة الثانية) من (698 - 708 هـ) / (1298 -1308م) والتي وصلت إلى عشرة أعوام .

13- (المظفر) بيبرس الجاشنكير (708 - 709هـ) / (1308 - 1309م).

14- (الناصر) محمد بن قلاوون (الفترة الثالثة) من (709 - 741 هـ) / (1309 - 1340 م) والتي كانت أطول فترات حكمه ووصلت إلى إحدى وثلاثين عامًا .

15 - (المنصور) أبو بكر بن الناصر قلاوون (741- 742هـ) / (1340 - 1341م).

16- (الأشرف) علاء الدين بن الناصر قلاوون (742 هـ / 1341م) مدة حكم في نفس العام .

17 - (الناصر) أحمد بن الناصر قلاوون (742 - 743 هـ) / (1341- 1342م).

18 - (الصالح) إسماعيل بن الناصر قلاوون (743 - 746 ه) / (1342 - 1345م).
19 - (الكامل) شعبان بن الناصر قلاوون (746 - 747 ه) / (1345 - 1346م).
20 - (المظفر) حاجي بن الناصر قلاوون (747 ه - 748 ه) / (1346 - 1347م).
21- (الناصر) حسن بن الناصر قلاوون (الفترة الأولى) (747 - 754 ه) / (1347 - 1354 م) وبلغت سبع سنوات .
22- (الصالح) صالح بن الناصر قلاوون (752 - 755 ه) / (1351 - 1354م).
23 - (الناصر) حسن بن الناصر قلاوون (الفترة الثانية) (755 -762 ه) / (1354 - 1360م).
24 - (المنصور) محمد بن حاجي بن الناصر قلاوون (762 - 764 ه) / (1360 - 1362 م).
25- (الأشرف) شعبان بن حسين بن الناصر قلاوون (764 - 778 ه) / (1362 - 1376 م).
26- (المنصور) علي بن شعبان بن حسين بن الناصر قلاوون (778- 783 ه) / (1376 - 1381م).
27- (الصالح) حاجي بن شعبان بن حسين بن الناصر قلاوون (783 - 784ه) / (1381- 1382م) ".

* * * *

في بداية العصر المملوكي البحري كانت شجر الدر قد بثت في نفوس المماليك الخشية من الأيوبيين حرصًا على تثبيت دعائم حكمها على مصر، فقعدت بصحبة المماليك إجتماعًا عاجلا ً في قلعة الجبل ليجدد الجنود والأمراء الولاء للسلطانة شجرالدر وأتابكها عزالدين أيبك، وأمروا بالقبض على كل من والى الأيوبيين أو أظهر التعاطف و الود معهم، وانطلقوا إلى مقر الخلافة العباسية ببغداد ليسألوا الخليفة المستعصم التأييد لشجرالدر ولكنه أبى واستنكر قائلا ً " إن كانت الرجال قد عُدمت عندكم فلتخبرونا نُسير إليكم رجلا ً "، وبهذا الرد العنيف لشجرالدر قررت التخلي عن السلطنة لأتابكها وزوجها أيبك بعدما رأت العداء المحيط بها من كل جانب فبايعوا أيبك بالسلطنة لتنتقل السلطنة من البيت الأيوبي لعهد جديد من سلاطين المماليك .
وريثما تولى المعز السلطنة كانت الجيوش الأيوبية على أهبة الاستعداد لاستعادة مصر من أيدي مغتصبيها -على فرض أن المماليك أعداء للدولة- فتحرك الأمراء الأيوبيون من الشام بقيادة الناصر يوسف أمير دمشق وحلب، ولكن أيبك أدرك خطورة الحرب معهم في بداية حكمه فرسم حيلة أن يُشرك صبي صغير من بيتهم الأيوبي يُدعى الأشرف بن المسعود بن الملك الكامل، ولكن الأيوبيون تداركوا الحيلة واكتشفوا الأمر سريعًا فالتقيا في 10 من ذي القعدة سنة 648ه/ 2من فبراير(شباط) 1251م في موقعة العبّاسة بين بلبيس ومدينة الصالحية، فقالت المناوشات أن الدائرة للصالح الأيوبي في البداية، ولكن بعد إنضمام الفرق المملوكية لجيش أيبك وتخليهم عن الناصر بدافع العصبية و الدم الواحد أجبروا الأيوبيون على التقهقر والتراجع إلى الشام، فعاد المماليك إلى القاهرة منتصرين بالأسرى الأيوبيين، وفي شهر ذي الحجة من عام 648ه أرسل أيبك جيشًا إلى غزة فاستولى عليها بسهولة، وسيطروا على البلدان الشامية من قبضة الأيوبيين، وحاول كل منهما استمالة الصليبيين لصالحه، فأدرك المستعصم الأمر وطلب من الأيوبيين إبرام صلح بينهم وبين أيبك قابلين كل شروطه للإتحاد ومواجهة خطر

التتار المحدق بالدولة الإسلامية بعد أن ذاع صيتهم وظهرت وحشيتهم في القتل فاستجابوا للصلح .

* * * *

مقتل عز الدين أيبك والتتار :

قُتل السلطان المملوكي عز الدين أيبك في الثلاثاء 24 من ربيع الأول سنة 655هـ / 10 أبريل (نيسان) 1257م قبل سقوط بغداد في قبضة التتار بعام واحد، وقُتل أيبك على يد بعض غلمانه بتحريض ودافع من شجرالدر بعد أن زادت الوَحشة بينهما وتدخل شجرالدر في شئون الحكم، ولم تلبث أن جواري امرأة أيبك الأولى أم نور الدين علي أن تآمرت على قتل شجر الدر بسبب قتلها لزوجها أيبك فبايع المماليك ابنه نور الدين علي سنة 655 هـ / 1257م، وكان عمره لا يتجاوز الخمسة عشر عامًا، ولقب بـ (المنصور) فتدهورت الحالة في البلاد وحدث اضطراب في المملكة لتنافس الأمراء على تبوء العرش المملوكي من يد المنصور كان يعلو نجم لأمير مملوكي يدعى (سيف الدين قطز) ، وكان قطز أتابكًا عليه فـأزاح المنصور بعدما دعمه الأمراء والأعيان لمواجهة الغزو المغولي وذلك في ذي القعدة سنة 657 هـ / نوفمبر(تشرين الثاني) 1259 م .

* * * *

التتار :

التتار أو المغول هي قبائل عاشت في هضبة منغوليا، وجغرافية هذه الهضبة الواسعة تمتد من أطراف الصين إلى أواسط آسيا وتكون عددًا هائلا ً من خطوط الطول ودوائر العرض مما يدل على تنوع المناخ على سطحها، وقبائل المغول انقسمت حسب نوع الحياة التي تعيشها، فمنها من كانت قبائل رعاة، ومنها قبائل صيادين، وتميزت هذه الهضبة بقسوة مناخها فشتاءٌ قاسي قارص البرودة تهطل فيه الأمطار وتصل درجة الحرارة أحيانًا إلى 56 درجة تحت الصفر، فتتجمد مياهها والجليد يُرى داخل أواني الشرب، وصيف قصير تشتد به الحرارة لتصل إلى 60 درجة مئوية فوق الصفر؛ أما الرياح فهي شديدة معظم أيام العام، تنقلب الرياح إلى أعاصير وعواصف تقتلع الخيام وتهدد حياتهم، فكانت حياة المغول قاسية صعبة، فلم تكن لديهم إلا غريزة البقاء بسبب معاناتهم من الأحوال الجوية الشرسة، فاكتسبوا طابع الخشونة والقسوة وكثرة التنقل انعكست على حياتهم الدينية ومعتقداتهم الإلهية، فعبدوا الجن والشياطين والأنهار و الجبال والشمس والقمر، أما كان هناك بعض القبائل تدين بالنصرانية.

في هذه المنطقة وتحت هذا المناخ ولد جنكيز خان سنة 549هـ/1154م وهو مؤسس الإ مبراطورية المغولية وزعيم القبائل التترية، واستطاع سنة (603هـ/1206م) أن يوحد كل القبائل تحت زعامته، وتوسع جنوبًا في فترة (608-612هـ) نحو الصين، ومن سنة (614 -617هـ) توسع غربًا وقضى في طريقه على قبائل الترك (الخَطا) المسلمة التي كانت بين المغول والدولة الخوارزمية في إيران، وفي هذا الغزو المرير استشهد أكثر من مليون مسلم، وهذا القدر لم يُقنع جنكيز خان، فاقتحم روسيا حارقًا موسكو، وانقض على بولندا والمجر، وحكم فيها باسم المغول .

* * * *

ليلة سقوط بغداد :

قرر المغول الزحف على معقل الخلافة في العراق (بغداد) لتوسيع دولتهم في بداية عام(655 هـ / 1257م) بغرض القضاء على كل الممالك والدول في طريقها فوصلوا

بغداد وأرسلوا تحذيرًا للمستعصم بأن يُسلمّ بغداد وله الأمان فكان رده بأن توعدهم الحرب، فسار هولاكو -وهو نائب جنكيز خان في حروبه ضد البلاد العربية- بجيوشه وفرقه العسكرية الجرارة تجاه بغداد وأنزلَ الهزيمة بجيوش الخليفة عند البر الغربي من نهر دجلة وضيق عليها الحصار من كل جانب في يوم 12 من المحرم سنة 656هـ /الموافق 18 من يناير (كانون الثاني) 1258م، وحاصر بغداد نحو 200 ألف مقاتل من المغول بحسبما قدّر (ابن كثير)وكان على رأسهم هولاكو، فضربوها ودكوها بالمجانيق فدخلوها يوم الأربعاء التاسع من صفر 656هـ/ 14 فبراير (شباط)1258م، فدمروا كل ما قابلوه واستباحوا كل شيء لأنفسهم، وبعد أن سلم الخليفة نفسه للمغول بعد أن أعطاه هولاكو الأمان قتلوه هو وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاثة (فاطمة وخديجة ومريم) بفضل خيانة الوزير الشيعي العلقمي، ولم يكتف هولاكو بقتل الخليفة بل وقتل أكثر من مليون مسلم بالعراق وأسروا زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان ثم توالت البلاد في الاستسلام على أيدي المغول حتى (الموصل) .

وسقط عشرات الآلاف من الفقهاء شهداء لمذابح التتار، حتى إن الجمعة أقيمت بجماعة قليلة بعد أن نودي بالأمان، وكالعادة لم يمس النصارى بسوء ولم يقترب من كنائسهم، وكذلك اليهود، وهرب أهل الشام إلى مصر فرارًا من المذابح، فازدحمت مصر وخصوصًا القاهرة، مما جعل أحد الرحالة وهو شيخ الربوة يذكر اتصال عمارات القاهرة " وانتهى الحال في اتصال عمارتها إلى أن صار في ضواحيها عشرة جوامع يصلون فيها الخطبة، فيهم إلى ما بين ألف ألف وإلى فوقها، لكثرة من ضوى إليها من الأمصار عند هجوم التتار واستيلائهم على العراق والجزيرة والشام".

* * * *

عين جالوت ونهاية البطش المغولي :

بعدما اكتسحت القوات المغولية العراق والشام وذلك على حساب المسلمين تناثر غرور هولاكو يملأ الأرض راغبًا في غزو مصر حتى يتمكن من إحتلال الأرض من المشرق إلى المغرب، فأرسل هولاكو إلى السلطان سيف الدين قطز وهو الذي تولى الحكم -بعد إطاحة نور الدين علي بن المعز أيبك- رسالة تهديد ووعيد يطلب منه التسليم قائلا ً على لسان رسله " يعلمُ الملكُ المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جُند الله في أرضه، خَلَقنَا من سَخطِهِ وسلطهِ على من حل به غضبه، فاتعظوا بغيركم، فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى، وختمها بقصيدة مطلعها ..

(ألا قل لِمصر ها هلاون قد أتى ... بحد سيوف تنتضي وبواتر)

(يصيرُ أعز القوم منا أذلة ... ويُلحق أطفالا ً لهم بالأكابر)

وبعد وصول الرسالة إلى قطز كان لابد من الرد عليها كما جاءت فقتل رسل هولاكو وعلق رؤوسهم على باب زويلة بالقاهرة، وقرر أن يستغل فرصة نقض التحالف بين المغول والفرنجة (الصليبيين) وموت الخاقان الأعظم (منكوخان) مما أدى إلى ذهاب هولاكو إلى الشرق وترك القوات بين قياده نائبه (كتبغا) فتقابل المسلمون مع المغول التتر في فلسطين بسهل عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان سنة 658هـ الموافق للثالث من سبتمبر (أيلول) 1260م، وفي هذه المعركة أظهر المسلمون بقيادة قطز بسالة وشجاعة نادرة فطاح بهم قطز بسيفه يمينًا ويسارًا، يقتل ويفني، يصول ويجول،

حتى افنوا جيوش المغول عن بكرة أبيهم، وق ُتل القائد (كتبغا) ليتسن للمسلمين فتح كل البلدان المحتلة من الجيش المغولي بسهولة ويسر واستردوا كل ما لديهم من بلاد حتى وحد الملك المظفر سيف الدين قطز مصر والشام مرة أخرى .

* * * *

بعد موقعة عين جالوت قلت حيلة المغول وانكسرت شوكتهم ليتراجعوا حتى حدودهم القديمة مما أتاح الفرصة لتجدد النزاعات الداخلية بين الأمراء المماليك، وتآمر المماليك على اغتيال قطز وبثوا الحقد في نفس بيبرس تارة بسبب استبعاده من أمور شتى تخص المماليك، وتارة يهمل آراءه العسكرية والسياسية للدولة، فقدم بيبرس على ا غتيال سيف الدين قطز يوم السبت 15 من ذي القعدة سنة 658هـ/22 أكتوبر (تشرين ا لأول) 1260م، وبمقتل قطز بايع المماليك بيبرس بالسلطنة على مصر والشام وأجمعوا وحلفوا له يميني الولاء والطاعة، وألا يخونوا ولا يثبوا عليه، وفي ظل ما أدركه بيبرس من مؤامرات أراد أن يعمل تدبيرًا احترازيًا بإحياء الخلافة العباسية ويكون بيبرس حامي الخ لافة الإسلامية بلا منازع .

استقدم بيبرس بعض الأمراء الصغار من البيت العباسي الذين استطاعوا الفرار ليلة سقوط بغداد منهم الأمير (أبوالعباس أحمد) والذي قد لاذ بدمشق؛ فأرسل بيبرس في طلبه ولكنه قُتل أثناء سيره إلى القاهرة، وبالاستعانة بجواسيس بيبرس وجد (أبو القاسم أحمد) أيضًا ببلدة بعيدة عن الأنظار ببلاد الشام، فاستدعاه للقاهرة واستقبله استقبالا ً حافلا ً ، وبويع بالخلافة في 13 من شهر رجب659هـ/15 من يونيو (حزيران) 1261م، وكتب بيبرس إلى كل الأمراء في جميع البلدان تحت إمرته أن يُبايعوا أبا القاسم ويدعو له على المنابر قبله، وتسك العملة باسميهما معًا، وهكذا آمن بيبرس طمع الأمراء المماليك في حكمه .

* * * *

الظاهربيبرس وتأسيس دولة المماليك البحرية :

بعد انتهاء المؤامرات والدسائس بين الأمراء هكذا كتب التاريخ عن استقرار الدولة المملوكية، وعدّت الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقي للدولة البحرية وكان للظاهر في أوائل حكمه سرايا تستعيد ما بأيدي أمراء الأيوبيين في الشام في عهد أيبك وقطز، وكان له دورًا فعّالا ً في مقاومة الثورات المضادة التي ظهرت في بداية حكمه كما بدا من الأمير سنجر الحلبي عامل قطز على دمشق -العامل هو الوالي المُعين من قِبل السلطان الحاكم- فقبض عليه بيبرس وبعدما تعهد سنجر بالولاء عينه عامله على حلب، والأمير شمس الدين أقوش كان قد استعمله قطز وأمّره على غزة ونابلس والبلاد الساحلية ثم تعهد مثلما فعل سنجر فأطلق بيبرس سراحه، وبفضل دهاء بيبرس السياسي الحربي استطاع أن يقبض على الملك المُغيث عمر الأيوبي صاحب الكرك وذلك في سنة 661هـ ناهيًا حكم الأيوبيين على الكرك بصورة نهائية ضامًا إياها لملك الدولة المملوكية البحرية ، ولم يتسن حتى ذهب إلى (قيسارية) سنة 663هـ/1265م وهو حصن تميز بمناعته وقوته، فمد بيبرس ساعده مع النقّابين في نقب الحصن و القلعة حتى جُرحت يداه جراء العمل الدؤوب؛ فبعث للأمراء المُحاصِرين لبلاد سقطت في قبضة الصليبيين حاثًا إياهم قائلا ً:

" إنا نحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة، ولا أنتم في ضيق ونحن في سعة، ما هنا إلا من هو مباشر الحروب، الليل والنهار، وناقل الأحجار ورابك الكفار، وقد تساوينا

في هذه الأمور ".
وبعد ذلك نصب حولها من المجانيق ما يكفي لهدم القسطنطينية واستمر بقصفها حتى سقطت في يديه وأعلن أهلوها الاستسلام في جمادى الأولى سنة 663هـ/فبراير(شباط) 1265م، وأمر بيبرس بتدمير قيسارية وقلعتها.
" كانت الحنكة الحربية لدى الظاهر بيبرس على أوجها، فبعدما استسلمت قيسارية قرر الظاهر الذهاب إلى أرسوف مارًا بحيفا فاستولى عليها وهاجم عثليث وقلعتها -وهي بين حيفا وقيسارية- ثم اتجه إلى أرسوف، وكانت أرسوف بها حامية قوية من فرقة الإسبتارية الصليبية المتعصبة لها من العدد 270ألف فارسًا مشحونة بالسلاح والعتاد، وأظهر بيبرس من ضراوة القتال وبأسه في قتل اثنين من فرسانهم وراميًا لثلاثمائة منهم في يوم واحد، ومن كثرة مجانيقه انهار برج حماية من أسوار أرسوف فتمكن من دخول المدينة وسقطت في يديه في شهر رجب سنة 663هـ/أبريل(نيسان) 1250م بعد حصار بلغ أربعين يومًا، وقتل حوالي ثلثي الحامية، ودخل الأمير علم الدين سنجر الخياط جامعًا سيوف الصليبيين، وأسر حوالي ألف أسير منهم مكبلين إلى الظاهر بيبرس إلى قلعة الكرك حيث كان ينتظر بشائر الفتح بعد أن جعلهم علم الدين يهدمون المدينة والقلعة ".
هاجم بيبرس عكا في شعبان سنة 664هـ/يونيه(حزيران) 1266م، وكانت قوية منيعة، تحت حماية حامية فرنسية يرعاها لويس التاسع ملك فرنسا، فترك عكا متجهًا لسهل عين جالوت، ثم نزل بصفد وبدأ هجومها في رمضان 664هـ/يوليو(تموز) 1266م، وكانت صفد تحت حماية فرقة الداوية، فقد اتخذ الداوية من صفد معقلا ً، وشدد بيبرس في حصارها كما في وصف ابن عبد الظاهر في الروض الزاهر قائلا ً:
"وكان بيبرس يعمل بنفسه في حمل التراب ونقل الأحجار ونقب الأسوار ورمي السهام، وشاهده القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يجر المجانيق ويحمل الأخشاب، فكان غيره من الناس إذا تعب استراح حتى يعود إلى الجر، أما بيبرس فكان لا يسأم من الجر ولا يبطله "،
حتى وصله المدد من المنصور أمير حماة وكما كان بأرسوف استمر حصار صفد أربعين يومًا، وبعدما رأى الداوية عدم جدوى المقاومة أرسلوا في طلب الأمان من بيبرس مقابل تسليم الحصن، فأمرهم بيبرس بتجريدهم من السلاح وترك كل شيء بالحصن على حاله ومن يخالف ينكث العهد.
واستسلمت المدينة في شوال سنة 664هـ/1266م، وأمر بيبرس بقتل جميع فرسان الداوية بفعل المجازر التي ارتكبوها في حق المسلمين ورغب الناس في سكن المدينة فأعطاهم بيبرس الغنائم وحول كنيستها إلى جامع يُذكر فيه اسم الله.
"وأرسل أهل عكا إلى الظاهر بيبرس رسولا يطلبون منه أن يأذن لهم بنقل من قتلهم من أهل صفد إلى عكا حتى يتبركوا بهم بوصفهم شهداء، فما كان من الظاهر إلا أن أمسك برسولهم في صفد وخرج في فرقة من جيشه ليلا ً وسرًا، ووصل إلى أبواب عكا التي أصبح أهلها وخرجوا دون أن يعلموا بوصوله، فقتل عدد كبير منهم وعاد، وأطلق رسوله وقال له" عد إليهم فقد عملنا شهداء، وكفيناكم مؤنة النقل وكلفته " واستولى بيبرس أثناء عودته على هونين والرملة وعين عليها عمالا ".
ومما يُذكر من فتوحات الظاهر بيبرس فتح يافا، فقد استولى عليها في مارس(آذار) سنة 1268م، واتجه نحو الشقيف محاصرًا إياها حتى استسلم أهلها طالبين الأمان ودخل

الشقيف في أبريل من العام نفسه، ثم أرسل جيشًا ليغير على طرابُلس فدكها وعاد بالأسرى والغنائم.
كانت في تلك الفترة قد زادت هيبة بيبرس في نفوس المسلمين وأعداءه على السواء، فأقدم بيبرس لفتح أنطاكية بعد استيلائه على الشقيف فأعد جيشه واتجه إلى حمص ومنها إلى حماة قاصدًا أنطاكية دون أن يخبر أحد وجهته الحربية، فأصبح الصليبيون أمام جنود المسلمين بقيادة بيبرس وقسم جيشه إلى ثلاث فرق عسكرية " فرقة تحت قيادته تهاجم المدينة، وإحداها اتجهت لميناء السويدية؛ لقطع الصلة بين أنطاكية والبحر، والأخرى سدت الممرات بين قليقية والشام لقطع المدد من أرمينيا الصغرى".
وأنطاكية محصنة تحصين منيع، وبعث أهلها رسلاً لبيبرس يحثونه على طلب الأمان، فرد الرسل ودعاهم لاستسلام المدينة في مدة أقصاها ثلاثة أيام، فانتهت المدة المحددة دون استجابة، فهاجمها أعنف وأقوى من ذي قبل، ودخل المدينة في سنة 666هـ/1268م، ولاذ أهل المدينة بقلعتها وطلبوا من بيبرس الأمان للمرة الثانية وقيل في توزيع غنائم أنطاكية أن " وزعت الأموال بالطاسات، ولم يبق غلام إلا وله غلام، وبيع الصغير باثني عشر درهمًا والجارية بخمس دراهم، وظل بيبرس فترة يومين يُشرف على توزيع الغنائم بنفسه، ورصد حصته ونصيبه من الغنائم لبناء الجامع بالحسينية ".

* * * *

الظاهر بيبرس وحرب أرمينيا الصغرى :
ومن القوى الصليبية كانت (مملكة أرمينيا الصغرى) وهذه المملكة تقع في الركن الجنوب الشرقي من آسيا الصُغرى (تركيا اليوم) وهي تقع في شمال بلاد الشام وجبال طوروس والبحر المتوسط من ناحية أخرى واستغل ملوك أرمينيا موقعهم وأمدوا الحملات الصليبية المتوجهة إلى مصر والشام بالسلاح والعتاد، وشاركوا الحملات المتجهة نحو الشام بالإشتراك الفعلي في الحملات الصليبية قتالاً ومساعدة.
كان ملك أرمينيا الصغرى (هيثوم الأول) قد حرص أيضًا على إغراء هولاكو وعقد تحالف مع التتار بعدما سمع اكتساح المغول لبلاد فارس وبلاد ما وراء النهر على مشاركة الصليبيين الفرنجة في حربهم ضد المسلمين، وبالفعل خرج هيثوم مع التتر لملاقاة المسلمين وبدأ هيثوم سنة(662هـ / 1264م) بمهاجمة (عين تاب) فلاقاهم جيش بيبرس فهزمهم شر هزيمة، ومنذ ذلك الوقت علم بيبرس أهمية تلك الإمارة الصليبية وأنها فرضت حصارًا اقتصاديًا على مصر ومنعت وصول الأخشاب والحديد إليها من آسيا الصغرى فاتجه إليها سنة(664هـ / 1266م) ودخلوا عاصمتها (سيس) وحرقوها.
وبقيادة الأمير المنصور قلاوون وهو أحد قادة جيوش بيبرس أغارت قوات بيبرس على باقي المدن الأرمينية الكبرى (المصيصة) و(أذنه) و(طرطوس) ومن ثمّ تخلت المملكة عن مدن ومواقع مهمة جدًا تتحكم في المواصلات بين أرمينيا الصغرى من جهة وبلاد الشام والعراق من جهة أخرى، وهذه المواقع هي قلعة (بهنسا) وانتقموا منهم عند (دربساك) و(مرزبان) و(رعبان) و(كينوك) وقتلوا أحد أبناء الملك (هيثوم) وأسروا الابن الثاني وهكذا بدأت هذه الإمارة في السقوط على يد بيبرس وقائده قلاوون وذلك جزاءًا على ما اقترفوه من جرائم في حق المسلمين، وتم القضاء عليهم وسحقهم تمامًا في عهد السلطان شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون.
ومن جهة الحجاز فكان لبيبرس أن يتخذ قرارًا إزائها فأدرك أنه إذا ضم الحجاز فسيُضفي على حكمه مهابة بين المسلمين، ويضعه في مصاف الخلفاء العباسيين فقام بعدة إص

لاحات بالحرم النبوي، وأرسل كسوة إلى الكعبة حيث اشتهرت مصر آنذاك بأجمل وأنفس المنسوجات الشرقية، كما أرسل الصدقات والزيت والشموع والطيب والبخور مع كسوة لقبر رسول الله محمد، كما حرص على آداء فريضة الحج سنة(667 هـ /1269م)، وأمر بجعل الخطبة للخليفة العباسي المقيم بالقاهرة ثم للسلطان المملوكي من بعده وهكذا أعلن بيبرس ضمه للحجاز وجعلها تحت إمارته المملوكية ثم أتبعها بضم اليمن التي كانت تحت حكم بني رسول آنذاك .

* * * *

الظاهر بيبرس وفتح قبرص :

جزيرة قبرص من أهم معاقل الصليبيين في شرق البحر المتوسط، وموقعها الجغرافي هو من أكسبها هذه الأهمية وكان مظهرها الجغرافي يوحي للناظر إليها أنها أشبه بمدفع يدوي (مسدس) وله فوهة مصوبة تجاه الشام، وإلى جانب ذلك احتلت ركنًا ممتازًا في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط مما اكسبها سهولة التحكم في مياة هذا الجزء الشرقي من البحر وما يطل عليه من بلدان؛ ولذلك كان يمكن للمرء أن يرى منها تركيا والشام بالعين المجردة ويبحر إليها مباشرة، وفي وقت قصير تقطع بحرًا إلى الإ سكندرية وبيروت أو بورسعيد، ولذلك كانت جميع القوى المتنافسة تحرص على وضع قبرص تحت إمرتها وداخل نطاق نفوذها، وقد فتحها المسلمون مرة في عهد عثمان بن عفّان سنة (28هـ/649م) .

ولأن قبرص كانت صليبية في فترة فتوحات الظاهر بيبرس وتولت إمداد صليبي الشام بـ المال والعتاد أثناء المناوشات المملوكية الصليبية في الشام، فكان لزامًا على بيبرس أن يقطع همزة الوصل ومصدر الخطر عليه في معقله، فتوجه بحملة بحرية ضخمة سنة (669هـ / 1270م) ،وإذ بالأسطول يقترب من قبرص فاجأته عاصفة شديدة في البحر فدمرت على إثرها إحدى عشرة سفينة، ولم يتوان القبارصة عن الأمر إذ بهم ينقضون على المسلمين وأسروا العديد منهم .

كانت هذه الحملة الفاشلة شعلة نيران في صدر بيبرس، فجهز أسطول آخر أكبر وأمتن، باشر صناعته بنفسه، وكما ذكر المقريزي في السلوك قائلا ً:

"والسلطان في الصناعة جالس بين الأخشاب والصناع، والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشواني "ولم يمض يوم إلا وبيبرس مع الصناع يحثهم ويحضهم على العمل والجد ويكافئهم بأشهى الأطعمة حتى فرغت في أيام قليلة لم تكن تكف لواحدة منها على حدة وهجم على قبرص ودخلها منتصرًا.

* * * *

بيبرس والشيعة :

"وفي هذه الفترة كانت قد ظهرت جماعة من الغلاة من الشيعة تسمى (الإسماعيلية الباطنية) واستطاعت هذه الفئة سنة 483هـ الاستيلاء على إحدى القلاع المنيعة بـ الشمال الغربي من بلاد فارس (ألموت) التي صارت بعد ذلك عاصمة الحكم الإسماعيلي وإنجاح خطوة تأسيس الدعوة في إيران، كما حاول السلاجقة في استرداد القلعة ولكنهم فشلوا لمناعتها القوية .

ولم تكتف الإسماعيلية بذلك، إذ ببعض قادتهم ينتشرون في الشام يدعون خفية لمذهبهم، ومكونين مراكز لهم في القرن السادس الهجري في بلاد الشام، وفي حصن (بانياس) و(القدموس) و(مصياف) و(الكهف)و(العليقة) حيث أصبح لهم في النصف الأ

ول من القرن السادس الهجري ما لا يقل عن عشرة حصون شامية، واتصفوا بصفات الغِل والخسّة والغدر، فبثوا الرعب في النفوس وعاثوا في الأرض فسادًا، وكانوا يتخفون في زي الفقهاء والمتصوفة ليغتالوا زعماء وقادة المسلمين، فاغتالوا (مودود) أتابك الموصل، و(جناح الدولة) أمير حمص، و(خلف بن ملاعب) صاحب فامية، واغتالوا الوزير السلجوقي نظام الملك المشهور بالتقوى وبُعد النظر والذكاء، وحاولوا جاهدين لاغتيال صلاح الدين الأيوبي مرتين الذي قضى الله أن يبق ليجاهد الصليبيين وضحضهم، وقتلوا من الأئمة والشخصيات الهامة الكثير، وقد عجزت القوى الإسلامية عن القضاء على هذه الجماعة الإرهابية الدموية التي كانت من أهم العوامل التي أدت إلى ضعف المسلمين، وعنصرًا لزيادة الفرقة بينهم، وكانوا سببًا أساسيًا في انتصار الصليبيين على المسلمين في كل مكاسبهم التي حققوها في الشرق والسبب في ذلك دمويتهم البالغة واغتيال القادة المسلمين، فقرر بيبرس أن يزيل هذه البقعة المقيتة من بلاد الشام فأخذ في الا ستيلاء على حصون الإسماعيلية الحشيشية الغلاة (669هـ - 672هـ)ويعد بيبرس منذ ذلك الوقت أول سلطان مسلم يمكن من الإسماعيلية ويقضي عليهم تمامًا ويمحق أثرهم .

ويقول المقريزي "(وفي ثاني عشر من ذي الحجة (671هـ) استولى السلطان على بقية الحصون الإسماعيلية وهي (المينقة ، القدموس ، الكهف) وأقيمت هناك الجمعة، وتُرُضي عن الصحابة بها، وعُفيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الإسلام و شعائره)" .

ولم ينس التاريخ جهود بيبرس لذكرها في تطهير بلاد النوبة سنة 675هـ وإعلان خضوعها للنفوذ الإسلامي، فذكر النويري وابن عبد الظاهر وابن شداد والمقريزي وابن الفرات وبيبرس الداودار في مصادرهم أن المسلمين منذ الفتح الإسلامي لمصر يكتفون بأخذ الجزية من هذه المملكة المسيحية، وكانت هذه المملكة تأبى تقديم الجزية في العديد من المرات، بل واعتدى أصحاب النوبة على بعض قرى مصر بأسوان وعيذاب في أثناء ما كان السلطان بيبرس منشغلا ً بحرب التتار والفرنجة في الشام والركن الشمالي الشرقي من الأراضي المصرية سنة 674هـ، مهددين بذلك تجارة مصر في البحر الأحمر، حيث كانت عيذاب ميناء وثغرًا تجاريًا هامًا تأتي عن طريقه تجارة الشرق ووسط أفريقية، وعلى هذه الشاكلة كانت أسوان فهي كانت ثغرًا حيويًا للتجارة في مصر ".

* * * *

بيبرس وغزو الأناضول :

بعد موقعة عين جالوت وهزيمة هولاكو والجيش التتري كان لزامًا على آباقا خان خليفة هولاكو أن يطلب الصلح من بيبرس على الرغم من احتفاظه بالكراهية والعداء للمسلمين وحفاظه على الود بينه وبين صليبيي الشام وقليقلية، فكانت المشاكل الداخلية والإنقسامات بين الجيش المغولي تحول بين قيامهم بغزو الشام، ولجأ آباقا في طلبه للصلح إلى مزيج من الترغيب والترهيب والتهديد فأرسل في الطلب رسالة مخاطبًا بيبرس "فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، ف المصلحة أن تجعل بيننا صلحًا ".

فأدرك بيبرس أنه لا يرض أي مسلم أي صلح مع المغول في هذا الوقت، دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله، فأعلن بيبرس رفضه للصلح حتى يسترد كل البلدان من أيديهم ويعيدها لحكم المسلمين، وبينما ظهر يأس آباقا كان قد أمر رجاله بالإغارة على الشام سنة 668هـ/1269م ،فهاجموا مدينة تدعى (الساجور) وبينما رأوا جيش

بيبرس ارتدوا على أعقابهم خائبين .
فأعادوا الكرّة وهاجموا (عين تاب) وعمق الحارم سنة 669هـ/1271م ، وهنا حاول إدوارد الإنكتاري أن يستغل الفرصة ويضم قواته للمغول فأرسل لآباقا خان سفارة من الرسل ولكنه لم يقدم إليهم سوى بضعة وعود، بل وأنه أرسل للسلطان بيبرس تجديدًا لمبدأ الصلح ولكن بيبرس قد رفض هذه المرة أيضًا .
وفي تلك الأثناء كانت سلاجقة الروم في الأناضول، في دوامة الصراع بين المغول و المماليك، فهم السلاجقة الروم تارة مع المغول يحاربون في صفوفهم، وتارة أخرى مع المماليك يستنجدون بهم ليحرروهم من السيطرة المغولية، إلا أنه كان هناك فئة من الأ مراء السلاجقة قرروا أن يكونوا المعارضة للتتار؛ فضغط عليهم التتار حتى انتقلوا إلى الشام ومصر؛ فرحب بهم بيبرس ووعدهم بالإنطلاق نحو الأناضول لتخليصها من السلا جقة المؤيدين للمغول، وضم البلاد المملوكية والسلجوقية للإتصال بمغول القبيلة الذهبية للوقوف في وجه مغول فارس .
موقعة إلبستان :
أعد بيبرس حملة كبيرة سنة 674هـ/1276م ، و سار على رأس جيو شه شمالا ً ، فوقع المغول والسلاجقة الروم بين قتيل وأسير، فأتم الله النصر لبيبرس ودخل (قيصرية) ودُعي له على المنابر ، وقدم له الأمراء هناك فروض الولاء والطاعة .

* * * *

وفاة ركن الدين بيبرس وإنتقال السلطنة للسلالة القلاوونية :
توفي بيبرس يوم الخميس 27 من المحرم سنة 676 هـ / 29 من يونيو(حزيران) 1277 م ، بعد جهاد طويل وحياة حافلة بالحركة والنشاط عن عمر يناهز ستة وخمسين سنة ، فعهد بيبرس قبل وفاته لولده السعيد بركة، متحديًا بذلك طبيعة المماليك ونظامهم، فأخذ بيبرس في جعل الأمراء أن تقسم يمين الولاء والطاعة لهذا الأمير، وكان بيبرس يظن أن ذلك كفيل بأن يضمن لولده استتباب الأمر بعد وفاته، ولكن العكس ما قد ظهر، فبعد وفاة بيبرس بفترة قصيرة أخذ أمراء المماليك يسببون المتاعب للسلطان الجديد، حتى اضطر للتنازل عن السلطنة بعد عامين فقط وذلك في سنة 678هـ/ 1279م ، وفي تلك الفترة عرضت السلطنة على أقوى الأمراء المماليك (قلاوون الألفي) فتظاهر بالزهد ورفض المنصب والأولى أن لا يخرج الأمر من ذرية بيبرس ، فاختير الأمير بدر الدين سلا مش سلطانًا بعد عزل أخيه السعيد بركة، وفي ذلك الحين أصبح قلاوون أتابكًا على هذا الأمير الصغير الذي لم يتم من عمره سوى سبع سنوات، فبعد هدوء الأمر في المملكة ا ستغل قلاوون الوصاية حتى يتخلص من المماليك الظاهرية ومن الصبي فقرر عزله بعد ثلاثة أشهر فقط من الولاية ، وبتولي قلاوون للحكم قامت السلالة القلاوونية والتي استطاعت أن تحافظ على الحكم مدة قاربت القرن من الزمان، فهذه السلالة قد شذّت عن النظام المملوكي كله فهي من اقرت توريث الحكم، وكان العصر القلاووني هو يمثل عصر الإزدهار في الدولة المملوكية.

* * * *

العصر القلاووني بين الفتن والحروب الخارجية :
تعرض حكم قلاوون في مهد حكمه وأوائل عهده إلى ثورتين، فثار عليه نائب السلطنة في دمشق الأمير (سُنقُر الأشقر) وهو قد امتنع عن مبايعة قلاوون ودعا أهل دمشق للخروج عن طاعته، وأعلن سنقر نفسه سلطانًا وتلقب بلقب الملك الكامل، وطلب من

كل من ناب السلطنة على الولايات الأخرى أن يبايعوه ويدينوا له بالولاء والطاعة، فعلم قلاوون بالأمر وذهب لملاقاة سنقر حتى هزمه وأجبره على الاستسلام، فطلب الأمان و العفو فمنحه قلاوون ذلك، وعاد إلى القاهرة معززًا، أما الثورة الثانية فقد صاغها ضده أمراء المماليك الظاهرية، إذ أبرموا اتفاق مع المغول على اغتياله، وأسّروا للصليبيين في عكا بما دبروا، ونصحوهم ألا يعقدوا أية معاهدات معه على أنه سيُقتل في القريب العاجل، لكن الصليبيين رفضوا التعاون معهم وأخبروا قلاوون بما وصلهم من أخبار، فاستدرج المتآمرين وأخبرهم بمكيدتهم وأمر بإعدامهم، ثم قبض على كل أمير يشك في إخلاصه وأودعه السجن، وبذلك فقد قلاوون الثقة تمامًا بكل مملوك ظاهري وقرر أن يُنشئ جماعة خاصة به يضمن ولائهم وحبهم .

* * * *

موقعة حِمص :

في تلك الفترة كان قلاوون مدركًا الخطر المغولي والصليبي فقد ارسل آباقا خان سنة 679هـ/1280م قوة احتلت بعض قلاع شمال الشام، ثم رحلت القوة إلى حلب فأحرقت جوامعها ومدارسها وفتكت بالكثير من أهلها، وأسرعت الحملة المغولية بترك حلب و العودة في صمت إلى قواعدها بالعراق وصلت الأنباء للسلطان المنصور قلاوون فخرج إلى غزة لملاقاة المغول، فاستغل الصليبيون فرصة خروج قلاوون لقتال المغول واغاروا على حصن الأكراد لانتزاعه من أيدي المسلمين ولكن محاولاتهم بائت بالفشل، وأدرك قلاوون خطورة الموقف أنه محاط بين قوى عظمى من الصليبيين والتتار فحاول أن يحدث التفرقة كي ينازل كل منهما على حدة، فتمكن من عقد صلح مع الصليبيين مدة عشر سنوات، ثم تحول للمغول وانفرد بهم لينزل بهم أشر هزيمة في حِمص، وخرج آباقا خان إلى الشام بنفسه قائدًا للجيش التتري سنة 680هـ/1281م ، وسار معه ليو الثالث ملك أرمينيا الصغرى، فدارت موقعة حمص بين المسلمين من ناحية والتتر وأرمينيا الصغرى في 14 من شهر رجب سنة 680هـ/ 29 أكتوبر(تشرين الأول) 1281م، وحلت بالتتار هزيمة ساحقة هلك منهم أكثر من معظمهم، فحاولوا الفرار قبل أن يتمكن قلاوون من ضحضهم والقضاء عليهم نهائيًا ، وانتهز قلاوون فرصة إنتصاره على المغول بأن يسحق الباقية من الصليبيين بالشام، فبعد انقضاء أربع سنوات من الهدنة والصلح بينهم هاجم قلاوون الإسبتارية في حصن المرقب وهو من أخطر الحصون الصليبية بالشام فنال قلاوون مبتغاه واستولى عليه فعليًا وبسبب تنازعهم فيما بينهم انتهز الفرصة واسترد اللاذقية سنة 686هـ /1278م، وبالرغم أنها آخر بلد من إمارة أنطاكية فقد مات بوهيموند السابع أمير طرابُلس دون وريث فقام نزاع داخلي وقرر قلاوون أن يترك الوضع يتفاقم حتى نال مراده واستنجد به بعض من الفرق المتنازعة على ملك طرابُلس.

جهز قلاوون مسيرته بأربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة الأشداء من مصر دون أن يعلن وجهته حتى وصل طرابُلس وأفرض حولها الحصار وضيق الخناق حتى سقطت في قبضته بعد إحتلال الصليبيون لها مدة 180 سنة وذلك في سنة 688هـ/1289م، ولم يلبث أن أخذ قلاوون كل المدن القريبة من طرابُلس التي أخلاها الصليبيون بعد السقوط وذلك لم يبق لهم في الشام سوى صيدا وصور وعكا (أمنع وأقوى المدن الصليبية على الإطلاق) وعثليث، فأثار قلاوون النقمة والغضب في الركن الأوروبي ودفع ذلك البابا نقولا الرابع للاستنجاد بملوك الغرب الذين أداروه ظهورهم بسبب مشاكلهم الداخلية، فلم يلب نداء البابا إلا جماعات فقيرة من شمال إيطاليا وجعلهم تحت رئاسة

أسقف طرابُلس غير أن البابا لم يكن راضيًا عن تلك الجماعات ولكنه وافق مضطرًا لذلك، وقدمت البندقية نحو عشرون سفينة وألف وستمائة مرتزق، وقد ملك أراغون خمس سفن حربية، فوصل هذا المدد الأوروبي أثناء ما كان الصليبيون يستجدون عطف قلاوون، فلم يكن المدد ذا عون أكيد بسبب نقص الخبرة وعدم ضبط النفس على الرغم من اشتعالهم حماسة، فاعتدوا على المسلمين خارج أسوار عكا مما جدد الإشتباكات بين المسلمين والصليبيين وأنذر قلاوون بعد العدة وجمع العتاد اللازم لقيامه بعملية حربية كبيرة من نوعها .

* * * *

المنصور قلاوون واستقطاب مماليكه :

حرص السلطان قلاوون منذ سنة 681هـ / 1282م على شراء فرقة مملوكية تدين له وحده بالولاء والطاعة مما رآه من المماليك الظاهرية من مؤامرات فقرر شراء الطائفة من الجركس، وليس من الأتراك أو الأجناس المملوكية الأخرى، وأسكنهم أبراج قلعة الجبل مما جعل لقبهم " المماليك البرجية" ، وكان المنصور يبذل الأموال لمن يحضر هؤلاء من التجار، فكان التجار يحضرونهم من المفاوز والبحار وبلاد الكرج (جورجيا حاليًا) وهي تقع بين بحر قزوين والبحر الأسود .

والمنصور قد اختار هذا العنصر لاعتبارات معينة بدليل قول (ابن تغري بردي : "وكان من محاسن الملك المنصور قلاوون أنه لا يميل إلى جنس بعينه، بل كان ميله يتخيل فيه النجابة كائنًا من كان) وكان الجراكسة على قدر من جمال الصورة وقوة البدن والشجاعة والفروسية على الرغم من إنخفاض أثمانهم بسبب تعرض بلدانهم لغزو المغول فاكتظت الأسواق بهم، فظل السلطان يستكثر منهم حتى وصل عددهم إلى ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك ") .

وحرص قلاوون على تربية هؤلاء المماليك وتنشأتهم ، فأثنى ابن تغري بردي على حسن إعداد المنصور لمماليكه الجراكسة خلقيًا وعسكريًا فقال : " لو لم يكن من محاسنه إلا تربية مماليكه وكف شرهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله تعالى، فأنه كان بهم منفعة للمسلمين، ومضرة للمشركين، وقيامهم في الغزوات معروف، وشرهم عن الرعية مكفوف" .

ويذكر العيني " أن السلطان المنصور قلاوون ربى مماليكه كما ربى أولاده، وكانوا جميعًا عنده كبنيه، بل أعز من البنين" وأنه استقدمهم من أجل الجهاد، وغزو الأعداء، وكان مشفقًا عليهم محسنًا إليهم، كريمًا معهم، كيما يحققوا آماله المعلقة بهم، والمرجوة منهم، ومن ثم يفخر بهم قائلا ً: " كل الملوك عملوا شيئًا يذكرون به، ما بين مال وعقار ، وأنا عمرت أسوارًا، وعملت حصونًا مانعة لي ولأولادي وللمسلمين وهم المماليك" .

وقال ابن تغري بردي في تكوين وإعداد هؤلاء المماليك : " وجمع من المماليك خلقًا عظيمًا لم يجمعهم أحد قبله فبلغت عدتهم اثني عشر ألفًا، وصار منهم الكبار والنواب، ومنهم من تسلطن من بعده، وتسلطن أيضًا من ذريته سلاطين كثيرة، آخرهم المنصور الحاجي الذي خلعه السلطان برقوق، وأعظم من هذا أنه تسلطن من بعده من يوم مات إلى يومنا هذا(ابن تغري بردي سنة 874هـ) إما من ذريته وإما من مماليكه أو مماليك أولاده وذريتهم " .

* * * *

وفاة السلطان قلاوون وبداية سقوط دولة المماليك البحرية :

لم يتسن لقلاوون استرداد عكا حتى وافته المنية فجأة في 7 ذي القعدة سنة 689 هـ/ 10 (تشرين الثاني) نوفمبر لسنة 1290م، ودفن المنصور قلاوون في مقبرته بشارع بين القصرين بالقاهرة حاليًا، وقد جعل قلاوون ولاية العهد لابنه علاء الدين عليّ، لكن ولى العهد قد توفيّ في حياة أبيه سنة 687هـ/1288م، فلم يكن له سوى ابنه الثاني صلاح الدين خليل الذي كرهه الأمراء بفعل قسوة قلبه وعدم تمسكه بقواعد الدين فوجد منهم معارضة شديدة، كما قيل أن المنصور لم يثق يومًا بتصرفات خليل وأنه غير كفء لتولي السلطنة من بعده، فبعد أن اضطرهم الموقف وتم تجهيز الحملة التي تتوجه لإسقاط عكا من أيدي الفرنجة فأقسم الأمراء الإيمان للسلطان خليل ولقبوه بالأشرف، وعندما علِم الصليبيون في عكا حاولوا ثني عزم السلطان، فأرسلوا إليه سفارة برئاسة أحد أعيان عكا وعضوية فارسين أحدهما من الداوية والآخر من الإسبتارية وكاتب يسألونه العفو، فخرج الأشرف من القاهرة في شهر صفر 690هـ/1291 م، وفي طريقه إلى دمشق وضع هنالك عياله وحريمه، ثم غادرها نحو عكا، وأرسل إلى كل الولاة بإمداده بالذخائر والجنود، ثم موافاته إلى أسوار عكا، وهكذا اجتمعت الجيوش الإسلامية أمام عكا آخر المعاقل الصليبية، وقدر عدد هذه القوات بستين ألف فارس ومائة وستين ألفًا من المشاة، وعدد ضخم من آلات الحصار منها اثنين وتسعين منجنيقًا، فبدأ الأشرف بدك الأسوار ليلا ً يتابع النهار، واستمات الصليبيون في الدفاع عنها وطلبوا الإستغاثة من أوروبا فحصلوا على بعض الإمدادات القليلة من إدوارد ملك إنكلترا، وهنري الثاني ملك قبرص الذي حضر بنفسه للمشاركة في الدفاع عن المدينة، وبالرغم من التكاتف بينهم لكن قُدر للمسلمين الإنتصار وفتح الأشرف المدينة في 17 جمادى الأولى 690 هـ/ 18 مايو(آيار) 1291م، وفر منهم من فرّ إلى البحر وغرقت معظم السفن لإكتظاظها بهم، وأمر الأشرف بتدمير عكا حتى يقض على آمال الصليبين نهائيًا لاستردادها ، ثم استرد المسلمون باقي المدن السهلة كصور وصيدا وطرطوس وعثليث لتختتم الحروب الصليبية دون رجعة بعد قرنين من الزمان .

* * * *

قُتل السلطان الأشرف صلاح الدين خليل يوم السبت 12 محرم 693 هـ/ 31 ديسمبر(كانون الأول) 1293م، بعد أن تآمر عليه بعض أمراء المماليك، وترك اثنتين من البنات ولم ينجب ذكورًا، وفي الخمس أعوام التالية لمقتله كان التاريخ المملوكي محصورًا بين المؤامرات والقتل، فاجتمع المتآمرون على قتل الأشرف واتفقوا على تعيين بدر الدين بيدرا سلطانًا، لكن بدر الدين قُتل على أيدي مماليك السلطان المغدور خليل بزعامة الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، الذي سار عائدًا إلى القاهرة ليتربع على عرش السلطنة، فحال بين ذلك الأمير المنوب عن الأشرف في قلعة الجبل وهو الأمير علم الدين سنجر الشُجاعي ومنع زين الدين من دخول القلعة، فجرت بينهما مفاوضات حتى وقع الإختيار على محمد بن قلاوون أخي الأشرف وبايعوه سلطانًا، وقد كان محمد طفلا ً صغيرًا لم يتجاوز عمره 9 سنوات، فحدد علم الدين سنجر إقامة محمد بن قلاوون داخل قلعة الجبل مدة سنة في حكمه واستبد هو بالسلطنة حتى أزاحه زين الدين كتبغا ، ثم أزاح كتبغا محمد بن قلاوون متحججاً بفساد الحال نتيجة تولي صبي للحكم وحل مكانه سنة 694هـ/1294م، ولكن في هذه الفترة اشتدت المجاعة وانتشرت الأوبئة وانخفض منسوب النيل وارتفعت الأسعار فتشائم الناس منه ، وزاد على ذلك استقباله عشرة آلاف مغولي عُرفوا باسم (الأويراتِية) فارين هاربين من الدولة الإلخاتِية، فاستغل

أحد الأمراء الأقوياء وهو حسام الدين لاجين عوامل الكراهية ضد كتبغا وانتزع منه السلطنة ولكنه أساء التصرف مع سائر أمراء المماليك على أنه إذ فعل سينفرد بـ السلطنة ولن يجد من يزبحه كمن هو أزاح من كان قبله فضيّق عليهم وأقصاهم من مناصب الدولة العليا، وأحل مكانهم مماليكه الخاصة به، فالتفوا به وقتلوه في القلعة سنة 698هـ /1298م، وأصبح منصب السلطان شاغرًا وفكر الأمراء في محمد بن قلا وون لولاية ثانية في العام نفسه على أساس أنه صاحب الحق الشرعي منذ أن عزله كتبغا، فجددوا له البيعة وتلقب بالملك الناصر بعد ذلك .
ومن أهم ما تعرضت له دولة المماليك تجدد هجمات المغول على الشام فقدم محمود غازان في الشام سنة 697هـ/1299م، وأحلت بالمماليك هزيمة بالقرب من مجمع المُرُوج بين حماة وحمص، وكانت المقاومة من المماليك شبه منهارة تمامًا فدخلوا دمشق وعاثوا في الأرض فسادًا، وقرر غازان الإكتفاء بما حصد وتعيين نائبًا عنه في دمشق، ففي تلك الأحداث خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون قاصدًا الشام، سنة(698هـ/1299م)، ودخلوا دمشق وطردوا المغول منها، فطلب غازان الهدنة فلم يولوه إلا ظهورهم، فحنق عليهم غازان واستجمع قواته وخرج سنة(703هـ/1302م) قاصدًا الشام، وعند القرب منها قاتله محمد بن قلاوون خارج دمشق في مرج الصفر وأجرعهم مرارة الهزيمة، وذلك جعل الناس يفرحون بالناصر محمد بن قلاوون رغم صغر سنه الذي لم يتعد الرابعة عشر من عمره ليستقبلوه استقبالا ً حارًا في دمشق و القاهرة، وعلى الرغم مما حققه الناصر لكن ما زال هناك من يستبد بملكه من الأمراء المماليك وتحكم بالسلطنة الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير(هذا بيبرس آخر غير الظاهر بيبرس البندقداري)، فأدرك الناصر محمد الخطر المحدق به فحاول أن يتخلص منهما ولكنهما أحبطا مخططه وحاولا القضاء عليه، لكن الشعب وقف بجانبه وناصره وآذره ضدهما، وبالرغم من ذلك أدرك الناصر أنه لا مفر من مضايقات سلار وبيبرس له فتظاهر بذهابه لمكة لآداء فريضة الحج ودخل الكرك واعتكف بها وتخلى عن السلطنة هناك، فانتخب الأمراء بيبرس الجاشنكير، ولكن مصادفته بانخفاض منسوب النيل وارتفاع الأسعار جعل المصريين يتطيرون منه ويتشاءمون كما فعلوا مع كتبغا، فطافوا بشوارع القاهرة معلنين ودهم لرجوع السلطان الناصر محمد مرة أخرى لحكم الدولة، وفي ذلك الوقت رفض بعض الأمراء في الشام الإذعان لبيبرس وأعلنوا ولائهم لقلاوون وأبنائه، ولذلك قرر الناصر العودة بجيش كبير إلى القاهرة بعدما وجد الإلتفاف الشعبي وحب البلاط الأميري له بعد أن بلغ أشده فوجد بيبرس نفسه وحيدًا بعد أن تخلى عنه الأ مراء فهرب إلى أطفيح واستتب الملك للناصر محمد بن قلاوون للمرة الثالثة .
استمر حكم محمد بن قلاوون للمرة الثالثة مدة إحدى وثلاثين سنة لم يتسن لأحد من الملوك مثل هذه المدة ازدهرت فيها الدولة المملوكية وبلغت أعظم صورها منذ عصر المعز أيبك، وبلغ نفوذ الناصر محمد بن قلاوون من برقة غربًا إلى الشام وجنوب العراق والحجاز شرقًا، ومن الأناضول شمالا ً حتى النوبة جنوبًا، وطلب وده سلاطين المغرب ودعوا له ، وفتح النوبة لأول مرة بعد حملتين في 715 و 716هـ / 1315 و 1316م ، أقام عليها أول حاكم مسلم من أهلها هو عبد الله برشنبو، ففقدت النوبة طابعها المسيحي واتخذت منذ ذلك الفترة طابعًا إسلاميًا عربيًا، وزار الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة مصر في تلك الفترة فأشاد بحكم محمد بن قلاوون قائلا ً:
" أمُّ البلاد وقَرَارَة فِرعونَ ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العَريضة، والبلد الأريضة المتناهيه في

كثرة العَمَارة، المتناهية بالحُسن والنّضارة، تموجُ مَوجَ البحر بسكانها، شبابها يجدٌ على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السّعد، قهرت قاهِرتُها الأمم، وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم، ولها خصوصية النيل الذي أجلّ خَطرها، وأغناها عن أن يستمد القِطر قِطرها، وأرضها مُسيّرة شهر لمجد السّير، كريمة التربة مؤنسةٌ لذِي الغُربة".

وفي سنة 741هـ/1340م توفي الناصر محمد بن قلاوون و شهدت دولة المماليك البحرية الضعف والإضمحلال بعد وفاته، حيث تمكن أبناء الناصر محمد وأحفاده أن يبقوا فوق عرش الدولة أربعين سنة بسبب الهيبة التي وُضعت للبيت القلاووني والهالة التي أحاطت به منذ ولاية المنصور قلاوون الأب، وازدادت في عهد الناصر محمد، ففي خ لال العشرين سنة الأولى التي تلت وفاة الناصر محمد (741 هـ - 762هـ) / (1341م - 1361م) قد تبوأ عرش السلطنة ثمانية من أولاده، والعشرين التالية (762هـ - 784 هـ / 1361م - 1382م) تولى السلطنة أربعة من أحفاده ومنهم من تولى وعمره عام واحد وهو الكامل سيف الدين شعبان، واضطربت الدولة ما بين فوضى و استقرار، وانتشر في الدولة سنة (749هـ) الوباء الأسود الذي حصد آلاف من الأرواح ، وضعف الإقتصاد وقلة موارد الدولة، وطغيان حكم الأمير الأتابك على السلطان نفسه، ومنهم من استغل السلطان لتحقيق مطالب خاصة به، وكان من ضمن الأتابك البرجي الجركسي (سيف الدين برقوق) و سقطت دولة المماليك البحرية بعد أن أطاح الأتابك برقوق بالصالح حاجي بن شعبان بن حسين بن الناصر قلاوون سنة 784هـ/1382م بعد عهد دام لأكثر من مائة وثلاثين عامًا .

الجدير بالذكر في دولة المماليك البحرية :

الظاهر بيبرس

الظاهر بيبرس البندقداري تركي الأصل من قبائل التتر القفجاق من الو سط،ولد سنة 620هـ/1222م،لأبوين فقيرين، فلم يأبه له أحد، واختطفه تجار الرقيق، وأخذ ينتقل بين أيديهم حتى وصل إلى حماة، وا شتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري فنُسب إليه، ثم انتقل إلى خدمة الصالح نجم الدين أيوب فأعتقه، فرد بيبرس الجميل فتفانى في خدمته، وبعد وفاة الصالح عمل في خدمة توران شاه بن الصالح أيوب حتى وصل لمنزلة قادة المماليك البحرية، وهرب مع كثير من القادة إلى الشام بعد ذلك بعد مقتل مقدمهم فارس الدين أقطاي على يد رجال عز الدين أيبك، ولما اجتاح المغول الشام عاد إلى مصر فأحسن قطز لقاءه، وضمه إلى جيشه ورجاله، حتى تآمر المماليك البحرية على اغتيال قطز وقتلوه فتنصب بيبرس مكانه في ذي القعدة سنة 658هـ/1260م، فتلقب بالقاهر ولكن نصحه الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير بتغيير لقب القاهر لأن ما أحدًا تلقب به وأفلح فأطلق على نفسه لقب الظاهر بيبرس وكانت حياته حافلة بالكفاح و الجهاد حتى توفي في 676هـ/ 1277في الشام ويُنسب إليه حي الظاهر بالقاهرة الآن .

بني خوارزم :

خوارزم هي دولة تركية في إيران (590 هـ) على أنقاض السلاجقة المسلمة في بلاد فارس ثم تو سعت على يد محمد خوارزم شاها (596 - 627 هـ)فضمت بلاد خرا سان وما وراء النهر وإقليم خوارزم ولم تسلم من الغزو التتري سنة (616 هـ) فا ستولوا على ممتلكاتها وقتلوا المسلمين حتى قارب عدد الضحايا أكثر من مليون مسلم وتفرقوا جميعًا أثناء الغزو التتري لبلادهم فا ستقدمهم الصالح أيوب في حربه مع إسماعيل ولكنهم انضموا لإسماعيل بعدما ا ستمال قائدهم فقاتلهم أيوب عند حمص سنة (644

هـ / 1246 م).
إقليم تركستان موطن المماليك البحرية :
تركستان وتعرف أيضًا ببلاد ما وراء النهر، إقليم بخارى الكبرى، منطقة أقاليم سيحون وجيحون بآسيا الوسطى، وكانت تمتد في بعض الأوقات لتشمل أجزاء من خراسان، فإقليم ما وراء النهر يلي نهر جيحون الذي يفصل بين إيران وتركستان، وموطن الترك الغربيين هو تركستان أما الترك الشرقيين يتجاوز إقليم ما وراء النهر صوب الشمال حتى منطقة السهوب الروسية أو يمتد نحو الشرق حتى حدود الصين، وهذا الموطن يتطاول أحيانًا إلى الشمال الغربي من بحر قزوين، ويدخل منطقة القوقاز من الشمال، ويمتد حتى نهر الفولجا وأسماء البلاد الإسلامية الآن هي (طاجيكستان، كازاخستان، تركمانستان، أوزبكستان، تتارستان) وكانت تقع تحت الحكم الإستعماري الروسي .
العمارة في العصر المملوكي البحري :
أنشئ في العصر المملوكي البحري مساجد ومدارس للمذاهب الأربعة (الشافعي - المالكي - الحنبلي - الحنيفي) وخوانق وأربطة وزوايا وكتاتيب ، والقاهرة تدين للعصر المملوكي بتعميرها وتجميلها وظهرت بها أحياء باقية حتى وقتنا هذا (الناصرية، باب الخلق، باب اللوق، الموسكي، الأزبكية، بولاق) .

مصطلحات العمارة

العقود :
هو شكل حجري خارجي بارز يحيط بالأبواب والنوافذ الحجرية وهو ما يشبه محراب الصلاة في المساجد الآن من زخارف وهياكل حجرية محيطة به تجعل له شكلا ً مميزًا منه المكتوب ومنه غير المكتوب .
الصحن :
هو ما يشبه الآن الصالة المفتوحة دون سقف يعلوها وتحيط بها أربعة جدران شاهقة الإرتفاع بها جدار الباب الرئيسي كما هو موجود الآن بالمساجد الأثرية كمسجد السلطان الأشرف برسباي بمدينة الخانكة ومسجد السلطان حسن ومسجد الظاهر بيبرس وغيرهم .
الإيوان :
هي الغرفة الداخلية لمبنى المسجد والمدرسة والبيمارستان وتستخدم للصلاة أو للتشافي (الصحة) أو إقامة الجند والطلبة .
الفسقية :
بناء رخامي مخصص للوضوء داخل صحون المساجد، نفس طريقة عمل النافورة في العصر الحديث ؛ أما القباب والأعمدة والأروقة فالمعنى الحرفي هو ذاته المعنى الضمني للمبنى والأثر

أنماط العمارة

النمط الأول هو الصحن والأروقة :
المسجد عبارة عن صحن أوسط مكشوف تحيط به أربع ظلات، أكبرها ظلة القبلة وعلت المئذنة المدخل الرئيسي وميزت المداخل بخروج كتلتها عن سمت الواجهة كما في جامع الظاهر بيبرس .
النمط الثاني هو المدرسة ذات الأربع إيوانات :
ظهر بمدرسة الظاهر بيبرس واستمر هذا المسقط في مدرسة قلاوون ومدرسة السلطان حسن ، استخدمت المداخل التي تقع في قوصرات بارتفاع المبنى يعلوها المقرنصات

ووجد تدرج في الفراغات من الفراغ الخارجي إلى الفراغ الداخلي عبر المدخل المنكسر يؤكد على الإتجاه للداخل .

* * * *

جامع ومدرسة وبيمارستان قلاوون (مجموعة السلطان قلاوون) :

تقع مجموعة السلطان قلاوون على جزء من موقع القصر الفاطمي الغربي القديم بمنطقة النحّاسين بمصر القديمة، وتحتوي على قبة ومارستان ومدرسة، ولقد عُرفت هذه المجموعات متعددة الوظائف منذ العهد السلجوقي ولقد تم بناء هذه المجموعة في أقل من سنتين وأضيف إليه سبيل الماء سنة 1362م .

واجهة هذه المجموعة طويلة وغير مستقيمة، إلا أن هناك شريطًا من الكتابة وصفًا من الشرفات، وفي الجانب العلوي عقدين تعلوهما في الوسط نافذة مستديرة تذكر بـ الكنائس القوطية، وفي طرف المجموعة ترتفع مئذنة ذات ثلاث طوابق أعلاها دائري الشكل أضافه الناصر محمد بن قلاوون بعد زلزال 1303م، وزخرفتها بعقود متعددة الفصوص المتشابكة، والمارستان القلاووني ينتظم حول صحن كبير ينفتح عليه أربعة أواوين كبيرة، ويعود هذا التخطيط إلى المباني البوذية بآسيا الوسطى وهو تخطيط معتمد في العالم الفارسي من قبل ثم انتشر منذ القرن الثاني عشر في منطقة البحر المتوسط مع إنتشار فكرة المدرسة.

وبمدرسة مجموعة قلاوون أربعة إيوانات لكنها غير متساوية أكبرهم بيت صلاة، وهو عبارة عن إيوان كبير ينغلق على أقواس ذات مستويين، وتتصل القبة بالمدرسة بواسطة ممر ذي سقف مطلي، قاعة القبة ذات الزخرفة من الرخام والصدف .

تمتاز واجهة مدرسة الناصر محمد قلاوون بمدخلها القوطي الطراز المبني بالرخام والذي نقل من كنيسة سان جون بعكا على يد الأشرف خليل، ويعلو الباب منارة مزخرفة بزخارف جصّية دقيقة، وغرفة المبنى ذات المقرنصات التى تعلو غرفة الضريح .

* * * *

مدرسة وخانقاة الظاهر بيبرس البندقداري

أخذت العمائر الدينية في الإرتفاع وظهور بعض العناصر المعمارية أجنبية في الجزء المربع الذي يتقدم المحراب؛ حيث تغطيه قبة واسعة تشغل ثلاث بلاطات مربعة من رواق القبلة وهذا النوع معروف بتركيا في العصر السلجوقي، و شيد الظاهر بيبرس مدرسة لتعليم الدين ويلحق بها ضريح، وتشترك مباني المدرسة مع الضريح في واجهة واحدة؛ إلا أن ما بين المدرسة تبرز قليلا ً عن مبنى الضريح، ويفصل بينهما مدخل الجامع الذي يليه ممر طويل يؤدي إلى مدخلي الضريح والمدرسة اللذان يكونان في مواجهة بعضهما.

وتتكون المدرسة من صحن مربع تحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يتكون من ست بلاطات، والواقين الجانبيين مكونان من ثلاث بلاطات، أما الرواق الرابع مكون من بلاطتين فقط.

والمجاز مقسم إلى ثلاث ممرات عمودية على حائط القبلة ويشغل ثلاث بلاطات من رواق القبلة وينتهي عند القبة المقامة فوق المربع الذي يتقدم المحراب، ويتوسط الضريح قاعدة مثمنة الشكل تعلوها رقبة تحمل القبة وزخارف المحراب دقيقة ومميزة وهي عبارة عن زخارف هندسية من قطع الرخام والصدف واستُخدم أسلوب التذهيب به ويحيط بالصحن صفين من العقود المحمولة على أعمدة .

وتتميز المدرسة بوجود ثلاث مداخل محورية بارزة عن مستوى الواجهات الثلاث و المدخل الرئيسي في منتصف الواجهة الشمالية الغربية وهو معقود بعقد يكتنفه تجويفان ينتهي مقرنصات، والمدخل الرئيسي مُغطى بقبة بينما الجانبان مُغطيان بقبوين متقاطعين .

* * * *

مدرسة السلطان حسن

كان ابتداء العمل في البناء عام 757هـ/1356م، حيث استمر العمل فيه دون انقطاع لمدة ثلاث سنوات من غير توقف، وأرسل السلطان حسن لمصروفه في كل يوم عشرين ألف درهم ونحو ألف مثقال من الذهب، وقد صُرف على القالب الذي بُني عليه عُقد إيوان الجامع الرئيسي 100 ألف درهم، وكان من الطبيعي أن يكون هذا الإنفاق مرهقًا لميزانية الدولة وهو ما اعترف به السلطان حسن بقوله " لولا أن يُقال إن مَلِك مصر عجز عن إتمام بناء بناه؛ لتركت بناء هذا الجامع" واستمر العمل جاريًا في المدرسة إلى أن قُتل السلطان على أيدي بعض أمراء المماليك ممن كانوا في صُحبته في رحلة صيد في سنة 762هـ/1360م فأكمله من بعده أحد أمراءه وهو بشيرالجمدار والذي أتمه عام 1363م .

التصميم المعماري للمدرسة يتألف من صحن أوسط مكشوف يتوسطه ميضأة وهي تستعمل للوضوء مثمنة تعلوها قبة خشبية محمولة على ثمانية أعمدة رشيقة من الرخام الأبيض، يتعامد على الصحن أربعة إيوانات أوسعها وأعمقها إيوان القبلة، تحصر هذه الإيوانات فيما بينها أربع مدارس لتعليم المذاهب الإسلامية الأربعة، ولكل مدرسة باب كتب على كل من أبوابها أنه امر بإنشائها السلطان الشهيد المرحوم الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون في شهور سنة 764هـ، ويتكون كل منها من صحن مكشوف وإيوان القبلة ويحيط بالصحن مساكن للطلبة مكونة من عدة طبقات بارتفاع المدرسة وتعتبر المدرسة الحنفية وهي إحدى مدارسها أكبر هذه المدارس؛ إذ تبلغ مساحتها 898 متر مربع، وخلف إيوان القبلة الرئيسي توجد القبة التي بناها السلطان حسن من أجل أن يُدفن فيها ولكن حقيقة الأمر أن السلطان لم يدفن بها والذي دُفن فيها ابنه الشهاب أحمد المتوفى عام 788هـ/ 1386م.

* * * *

مسجد السلطان حسن

يعتبر هذا المسجد بحق أعظم المساجد المملوكية وأجلها شأنًا، فقد جمع بين ضخامة البناء وجلالة الهندسة وتوافرت فيه دقة الصناعة وتنوع الزخرف، كما تجمعت فيه شتى الفنون والصناعات، فنرى دقة الحفر في الحجر ممثلة في زخارف المدخل ومقرنصاته العجيبة، وتتمثل براعة صناعة الرخام في وزرتي (مثنى وزرة) - وهي ما تحيط بالشيء المبني وتبرز عنه كما في أسفل حوائط المنازل الآن مصنوعة من السيراميك - القبة وإيوان القبلة ومحرابيهما الرخاميين، والمنبر ودكة المبلغ وكسوة مداخل المدارس الأربعة المشرفة على الصحن، ومزارات أعتاب أبوابها، كما نشاهد دقة صناعة النجارة العربية وتطعيمها مجسمة في الآيات المنحوتة على جدران القبة .

أما باب المسجد النحاسي المركب الآن على باب جامع المؤيد فيعتبر مثلاً رائعًا لأجمل الأبواب المكسوّة بالنحاس المشغول على هيئة أشكال هندسية تحصل بينها حشوات محفورة ومفرّغة بزخارف دقيقة وما يُقال عن هذا الباب يقال عن باب المنبر

الداخلي .
وقد ازدحمت روائع الفن في هذا المسجد فاشتملت على كل ما فيه لا فرق في ذلك بين الثريات النّحاسية والمشكاوات الزجاجية، وقد احتفظت دار الآثار العربية بالقاهرة بـ الكثير من هذه التحف النادرة، وهي تعتبر من أدق وأجمل ما صنع في هذا العصر .
وتحتوي المدرسة الداخلية للمسجد على أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذي يبلغ عمقه حوالي 32.5 متر ، وفتحة عقده 19.20متر، وسقف بقبو تكلف بناء قالبه 100 ألف درهم، وقد كسيت جدران الإيوان بوزرات رخامية فُقد حاليًا معظمها فيما عدا جدار القبلة ما زال محتفظًا برخامه، ويتصدر هذا الإيوان محراب مزخرف بالرخام متعدد الألوان، ويجاور المحراب منبر من الرُخام يعتبر تحفة فنية رائعة؛ إذ إن له بابين من النحاس المفرغ .
كما تضم المدرسة إلى جانب إيوان القبلة ثلاثة إيوانات أخرى مغطاة بأقبية ويتوسط الإ يوانات صحن مكشوف مساحته 34060متر ×32متر يتوسطه فسقية مثمنة من الرخام معدة للوضوء .
ويضم الجامع أربع مدارس فرعية خُصصت كل مدرسة لتدريس مذهب من مذاهب الفقه الأربعة، وتضم كل مدرسة مجموعة كبيرة من الحجرات التي كانت معدة لسكن الطلاب والمدرسين المغتربين؛ سواء من خارج مصر أو من الأقاليم المصرية .
وكان مخططًا لهذه المدرسة أن تكون بأربع مآذن وأتم السلطان حسن قبل وفاته بناء المئذنتين الجنوبية والشرقية وكذلك بُنيت المئذنة الثالثة إلا إنها سقطت عام 762هـ وأدت إلى كارثة رهيبة، حيث قتلت 300 طفل من أيتام المسلمين الذين كانوا يدرسون في كُتاب الجامع ولم ينج منهم إلا ستة أطفال فقط، وهذا ما جعل السلطان حسن يتغاضى عن إكمال هذه المئذنة، وظل الجامع بمئذنتيه الحالتين الجنوبية والشرقية وملحق بالجامع قبة ضريحية يتوصل إليها عن طريق مدخلين عن يمين ويسار المحراب الرئيسي بإيوان القبلة والقبة مربعة الشكل طول ضلعها 21متر وارتفاعها إلى قمتها 84 متر وقد أعدها السلطان ليُدفن فيها ولكن لمّا قتل لم يُعثر على جثته ودُفن فيها ابنه المعروف بالشهابي أحمد .
أشهر الأطباق في العصر المملوكي :

طبق (أم علي)

طبق حلوى مشهور ومعروف في القطر المصري يتكون من رقائق عجين وحليب ومكسرات، ويعود قصة طبق أم علي إلى زوجة عز الدين أيبك أول السلاطين المماليك، وبعد أن تآمرت (أم علي) على قتل شجرالدر وأصبح ابنها عليّ سلطانًا أمرت والدته بخلط كل الدقيق مع السكر والمكسرات إلى آخر مقادير أم علي وتقديمها للناس، وبهذا الحفل الدموي الإنتقامي دخل هذا الطبق الشهير إلى المطبخ المصري وإلى العالم العربي بشكل عام .

طبق القاهرية

من أشهر حلويات العصر المملوكي، يُقلب عسل النحل مع قدر من الدقيق فوق نار هادئة، ويُضاف اللوز ويُترك حتى يتمسك ويتم تقطيعه .

دولة المماليك الجراكسة / الشراكسة
" البرجية "

(784 - 923 هـ / 1382 - 1517 م)

نشأة طائفة المماليك البرجية

تعود نشأة المماليك البرجية الجراكسة إلى السلطان المنصور سيف الدين ق لاوون كما ذكرناها سالفًا إبان فترة المماليك البحرية وحكم السلالة القلا وونية .

قيام دولة المماليك البرجية الجراكسة على أنقاض سلفتها البحرية :

بدأت مشاركة المماليك الجراكسة في الحياة السياسية العامة في مصر زمن الأشرف خليل بن قلاوون (689-693هـ) حيث سمح لهم بالنزول من القلعة في النهار بشرط ألا يبيتوا بغيرها، وكذا فعل أخوه الناصر محمد بن قلاوون، وكان لهؤلاء المماليك الجراكسة دور مهم في الإنتقام ممن قتل الأشرف خليل بن قلاوون واختيار أخيه السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطانًا وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة، ومع مرور السنوات ازداد نفوذ المماليك الجراكسة وبالأخص سنة (708هـ/1308م) حيث صار لهم صوت مسموع في اختيار السلطان المملوكي .

منذ زوال عهد الناصر محمد والسلالة القلاوونية تجرأ الصليبيون على غزو مصر سنة 767هـ/1365م، والمعروف أن الحروب الصليبية لم تنتهِ باسترجاع المسلمين لعكا سنة 690هـ/1291م، وبطرد آخر البقايا الصليبية من الشام؛ إنما استمرت تلك الحروب في صورة أو أخرى حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، واتخذت لها أكثر من ميدان في المشرق والمغرب، وفي ذلك الدور من أدوار الحروب الصليبية اتخذ ملوك قبرص الفرنجة من آل لوزنيان جزيرتهم قاعدة كبرى لتهديد السفن والمتاجر الإسلامية في شرق حوض البحر المتوسط فضلا ً عن القيام بغارات جريئة على بعض الموانيء الإسلامية وموانيء دولة المماليك بوجه خاص، وكان ملك قبرص آنذاك بطرس الأول قد سمع بأخبار الفوضى التي غرقت فيها مصر في عصر أحفاد الناصر محمد وكيف كانت الموانيء والمدن المصرية خالية تمامًا من وسائل الدفاع .

مذبحة الإسكندرية

قرر ملك قبرص وقادته غزو الإسكندرية للقضاء على دولة المماليك التي تسببت بطرد الصليبيين من الشام من ناحية وللاستفادة من مركز تلك المدينة الحربي وموقعها التجاري من ناحية أخرى، وعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت إلى مصر عن طريق التجار قبل وقوع الهجوم بمدة طويلة إلا أنه لم يكن من الدولة إهتمام، فنزل الصليبيون على شاطيء الإسكندرية صباح الجمعة 23 من المحرم 767هـ/ 9 من أكتوبر(تشرين الأول) 1365م، وارتكبوا فيها مذبحة رهيبة راح ضحيتها آلاف السكان من مسلمين ومسيحيين ويهود، ونهب الصليبيون البيوت والمتاجر و الكنائس والجوامع، ولم تسلم منهم حتى متاجر التجار الأوروبيين، وهرب

الكثير من الأهالي ناجين بحياتهم، وبعد مُضي أربعة أيام انسحب الصليبيون عائدين إلى قبرص حاملين في سفنهم آلاف الأسرى والمنهوبات .
خلال هذه الفترة من عصر السلاطين البحرية الصغار برز اسم أحد المماليك الجراكسة وهو الأمير برقوق بن أنس العثماني الذي استطاع بفضل قوته وطموحه أن يصل إلى منصب أتابك الجيش سنة 780هـ/1378م، وبذلك أصبح برقوق على جانب كبير من القوة في عهد السلطان علاء الدين علي الذي لم يتجاوز سنه ست سنوات، ظل السلطان علاء الدين علي في الحكم حتى وفاته سنة 783هـ/1381م، وهو في الثانية عشر من عمره، وكان في استطاعة برقوق أن يعتلي عرش السلطنة عقب وفاة السلطان علي، لكنه أدرك أن الأمور لم يتم نضجها بعد، لا سيما وأن له الكثير من المعارضين؛ لذلك تظاهر برقوق بالزهد في السلطنة معلنًا أن المصلحة تتطلب إبقاء وظيفة السلطنة في بيت قلاوون، وهكذا استدعي الأمير حاجي حفيد الناصر محمد و سنه وقتئذ إحدى عشرة سنة، واعلن سلطانًا 783هـ/1381م، وفي خ لال عهد السلطان الطفل الجديد أخذ برقوق يمكن لنفسه فاختص زملائه وأنصاره من أمراء المماليك بالوظائف الرئيسية في الدولة، في الوقت الذي أخذ يعمل على إكتساب محبة عامة الناس، فخفف عنهم الضرائب ، ولما وجد أن الأمور باتت مهيئة له لإعلانه سلطانًا انتحل نفس العذر الذي سبق أن تحجج به الطامعون في الحكم من أمراء المماليك، وهو صغر سن السلطان القائم، فاجتمع بالأعيان الذين أعلنوا خلع السلطان حاجي وإقامة برقوق مكانه وبعزل حاجي من السلطنة انتهى أمر بيت قلاوون والحكم المملوكي البحري وقيام دولة المماليك الجراكسة .

أسماء سلاطين المماليك البرجية (الجراكسة) وفترات حكمهم :

1- الظاهر سيف الدين برقوق (784-801هـ / 1382-1398م) .
2- الناصر فرج بن برقوق (801 -808هـ / 1398-1405م) .
3- المنصور عبد العزيز بن برقوق (808هـ / 1405م) .
4-الناصر فرج بن برقوق الولاية الثانية (808-815هـ / 1405-1412 م) .
5- الخليفة السلطان المستعين بالله العباسي (815هـ /1412م) .
6- المؤيد شيخ المحمودي (815-824هـ / 1412-1421م) .
7- المظفر أحمد بن المؤيد شيخ (824هـ / 1421م) .
8- الظاهر سيف الدين طُطُر (824هـ / 1421م) .
9- الصالح محمد بن طُطُر (824هـ /1421م) .

10- الأشرف برسباي (825 -841هـ / 1422-1437م) .
11- العزيز يوسف بن برسباي (841-842هـ / 1427-1438م) .
12- الظاهر جقمق (842- 857هـ / 1438-1453م).
13- المنصور عثمان بن جقمق (857 هـ / 1453م) .
14-الأشرف سيف الدين أينال (857-865هـ / 1453-1460م) .
15- المؤيد أحمد بن أينال (865هـ / 1460م) .
16- الظاهر سيف الدين خُشْقَدم (865-872هـ / 1460-1467م) .
17- الظاهر يلباي (872هـ / 1467م) .
18- الظاهر تمربُغا (872هـ / 1467م) .
19- الأشرف سيف الدين قايتباي (872-901هـ / 1467-1495م) .
20- الناصر محمد بن قايتباي (901-904هـ / 1495-1498م) .
21- الظاهر قانصوه (904-905هـ / 1498-1499م) .
22- الأشرف جانبلاط (905-906هـ / 1499-1500م) .
23- العادل طومان باي بن قانصوه (906هـ / 1500م) .
24- الأشرف قانصوه الغوري (906- 922هـ / 1500- 1516م) .
25- الأشرف طومان باي (922- 923هـ / 1516-1517م) .

المماليك البرجية والسلالة البرقوقية

كانت لا تزال المؤامرات تُحبك حتى بعد إنتهاء و سقوط دولة المماليك البحرية، فلم يكن قد مضى عام واحد حتى حيكت مؤامرة على الإطاحة بسيف الدين برقوق وإحلال الخليفة العباسي أبو عبد الله محمد بن المتوكل بدلا ً منه، ولكن برقوق اكتشف ما دُبّر له بفضل عيونه وجواسيسه، وكان معظم المتآمرين من المماليك البحرية فأمر بنفي بعضهم وطردهم من وظائفهم، ثم عُزل الخليفة أبو عبدالله محمد وأُحل مكانه الخليفة المتلقب بـ الواثق بـالله أبوحفص عمر بن إبراهيم، ولكن كل هذه الإجراءات لم تكن في صالح سيف الدين برقوق وانتهى أمره سنة 791هـ/1389م بعد قيام ثورة في الشام عليه وزحف الثوار إلى القاهرة فأسروا برقوق ورحلوه إلى الكرك، واشتد النزاع بين قائدي الثورة (منطاش) و(يلبغا الناصري) فهرب برقوق من الكرك واستعاد جيش الشام ودارت دائرة الحرب في صرخد سنة 792هـ وأنزل الهزيمة بالثوار وذهب إلى القاهرة ليلق هناك استقبالا ً مهيبًا شعبيًا بسبب ما رآه المصريون من تعسف منطاش، واقتضى لبرقوق في العامين التاليين ل1392م إخماد ثوّار الشام وكسر شوكتهم، ولكن مداهمة المغول واشتداد الهجمات مرة أخرى قد بث الرعب في قلوب الناس وخصوصًا بسبب هجوم تيمورلنك على بغداد بجيوشه الجرارة ليسقطها في قبضة المغول والتتر مرة ثانية سنة 1393م، فكان لزامًا على برقوق أن يُقعل حلف سريع بين القوى الإ سلامية للإتحاد في وجه تيمورلنك ورجاله وكان التحالف شمل القبيلة الذهبية، الإمارة الآرتينية إلى جانب السلطنة العثمانية، وأرسل تيمورلنك رجاله إلى القاهرة يحث برقوق على تسليم البلاد، فما كان لبرقوق إلا أن يرد بـ المثل وطرد رسل تيمورلنك من القاهرة خائبين وأعلن استعداده لمواجهة التتار ولكن الأجل قد حان موعده وتوفى تاركًا الأمر للناصر ولده فرج، وتهيأ الناصر للخروج لملاقاة المغول سنة 803هـ/1400م، الذي توغلوا إلى حلب وزحفوا على دمشق فناوش فرج تيمورلنك عند دمشق وهزمه حتى طلب تيمورلنك من الناصر إعلان الصلح فوافق السلطان فرج بن برقوق، ولكن ما حدث من مماليك السلطان جعل الوضع يتفاقم والأمور تسوء أكثر من ذلك، أثاروا الفتنة في المعسكر وتسللوا عائدين إلى القاهرة فخاف السلطان على منصبه وحياته بعدما جاءته رسالة تحذيرية بأنهم سينقلبوا عليه ويعينوا سلطانًا غيره فعاد سريعًا إلى مصر وجعل دمشق لأهلها يدافعون عنها، فاجتاحتها جيوش المغول وارتكبوا فيها من الفظائع ما لن يترك التاريخ لهم مجالا ً ليضيف سطرًا واحدًا عنهم يتضمن شفقة أو هوادة، ولم تسلم

الدولة العثمانية من الهزيمة؛ فبعد ذلك بقليل هُزم الجيش العثماني في أنقرة بقيادة بايزيد بن مراد فرضخ فرج لشروط تيمورلنك خوفًا من ملاقاة المصير عينه، فأطلق سراح الأسرى بعد مناوشات دمشق، وسك العملة باسم تيمورلنك، ومات تيمورلنك سنة 808هـ / 1405م، ومع ذلك خسر فرج شعبيته من قلوب معاصريه فخلعوه في العام نفسه ليولوا أخاه مكانه، فخرج في الشام يستجمع جيشًا له ويرهب من عصاه من أمراءه، ولكن بسبب سوء خلقه وتنكيله بمماليك أبيه لم يترك لهم خيارًا إلى الفتك به والإفتاء بجواز قتله فاغتالته المماليك سنة 815هـ / 1412م.

بعد مقتل الناصر فرج بن برقوق عُهد بالسلطنة إلى الخليفة العباسي أبوالفضل العباس المستعين بالله حتى تنجلي الأمور وينتخب المماليك أحد أمرائهم سلطانًا، وبعد مضي خمسة أشهر فاز الأمير شيخ المحمودي في حلبة المنافسة بينه وبين أمير آخر يُدعى(نوروز) فتولى منصب السلطنة بعد أن تلقب بلقب (المؤيد) وبعدها ساءت حالة الناس في عهد المؤيد شيخ نتيجة عدم قدرته في السيطرة على مماليكه؛ مما سبب أضرار جسيمة للأهالي الآمنين، وقد خلف المؤيد شيخ ابنه أحمد سنة 825هـ/1421م تحت وصاية الأمير طُطُر، ولم يلبث بضعة أشهر أن تولى طُطُر نفسه السلطنة لفترة قصيرة، فخلفه ابنه محمد الذي لبث في الحكم عدة أشهر تحت وصاية الأمير برسباي، وسنة 825هـ/1422م انتزع برسباي السلطنة لنفسه وتلقب بالسلطان الأشرف، قاسى الناس كثيرًا خلال سلطنة برسباي التي امتدت حوالي ستة عشرة سنة، بعد أن اثقل كاهلهم بالضرائب الباهظة وشاعت أنواع الإحتكار في التجارة إلا أنه لشدة بأس هذا السلطان لم تحدث في البلاد فتن في عهده.

فتح قبرص

لم تنس الصليبية العالمية ولا البابوية الحاقدة دور المماليك في مقاومة الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة على مصر ولا الدور الذي قام به المماليك في تحرير الشام من الدنس الصليبي، ولا ما قام به المماليك من القضاء على دولة أرمينية الصغرى النصرانية، تلك الدولة التي طالما هددت المسلمين ببلاد الشام وأطراف العراق وآسيا الصغرى، فضلاً عن تهديدها الاقتصادي لدولة المماليك في مصر والشام " والواقع أن سقوط مملكة أرمينية الصغرى الصليبية ليس إلا فصلاً من الفصول الختامية في قصة الحروب الصليبية للشرق الإسلامي حيث إن هذه المملكة جاءت وليدة الحركة الصليبية، وعاشت في ظل تلك الحركة، وشاركت في أحداثها مشاركة فعّالة؛ حتى انتهى أمرها سنة 776هـ/1374م بأن أصبحت جزءًا من نيابة حلب التابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام".

ولم تنته الحركة الصليبية بسقوط وطرد الصليبين نهائيًا من الشام في آواخر القرن الثامن الهجري / الثالث عشر الميلادي ، بل دخلت الحركة الصليبية في دور جديد وهو الدور الذي استمر في القرنين التاسع والعاشر الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين؛ فكان من الصعب أن يتخل الغرب الأوروبي عن الفكرة الصليبية تخليًا تامًا مفاجئًا بعد أن أعلن البابا نيقولا الرابع سنة (1288-1292م) والصليبيون استيائهم البالغ لسقوط طرابُلس ثم عكا في قبضة المسلمين، ولأن البابا نيقولا الرابع قد فشل - بالرغم من جهوده الكبيرة- في إرسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق، فإن جهود الصليبيين قد اتجهت إلى إضعاف مصر إقتصاديًا تمهيدًا لاحتلالها والإنطلاق منها صوب الشام، وأدرك الصليبيون أن قوة مصر - في هذه الفترة- تكمن في إقتصادها القوي الذي حصلت عليه باعتبارها مركزًا للتجارة العالمية في تلك الفترة، فكانت التجارة والوساطة بين الشرق الأقصى والغرب الأوروبي تمثلها مصر ومن ثم تحكمت في الأسعار وزاد دخلها وتحققت بذلك قوتها .
وبسبب الفوضى التي عمت الأقاليم الوسطى والغربية من آسيا نتيجة لغزو المغول وحركتهم التوسعية ضاعت أهمية طرق التجارة الرئيسية المألوفة بين الشرق والغرب وهي كما ذكرها الدكتور سعيد عاشور :
1- الطريق البري المار بسمرقند .
2- طريق الخليج الفارسي (العربي) .
3- طريق البحر الأحمر ومصر .
ولم يبق طريق آمن بعيد عن عبث المغول سوى طريق البحر الأحمر ومصر؛ للحصول على منتجات الشرق الأقصى والهند وبخاصة التوابل؛ ما جعل دولة المماليك تربح أرباحًا طائلة من وراء إحتكار تجارة الشرق، فضلا ً عن الأرباح التي حصل عليها التجار الإيطاليون من بيع هذه الحاصلات في أوروبا .
ولذلك لم يكن هؤلاء الإيطاليون في البندقية وجنوة يرغبون في محاربة دولة المماليك؛ بل إن مصالحها الخاصة تطلبت مسالمة تلك الدولة والمحافظة على علاقاتها التجارية معها حرصًا على مكاسبها وأرباحها؛ ولذلك فإن قرارات وأوامر البابوية من الدعوة لتحريم الإتجار مع المماليك ذهبت أدراج الرياح؛ على الرغم من قرارات الحرمان البابوية؛ بل إن البابوية عملت على تنفيذ قراراتها بقوة السلاح؛ فقامت بإعداد بعض السفن وتسليحها للتصدي في عرض البحر لسفن تجار الصليبيين الذين كانوا يتمردون على أوامرها وقراراتها، ولما فشلت دعوة المقاطعة الإقتصادية والحصار الإقتصادي لمصر المملوكية رأى الصليبيون أن يقوموا بالقرصنة، وبعمليات تخريبية واسعة بالموانيء المصرية والشامية لشلّ الحركة التجارية بها .
وبهذا تحولت القرصنة في حوض البحر المتوسط إلى السلب والنهب والأسر،

وامتلئ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي بغارات القراصنة القبارصة والإسبتارية من رودس على السواحل والثغور المصرية والشامية و التربص بسفن التجار المسلمين في عرض البحر وبسبب ميزة الموقع الجغرافي لجزيرة قبرص بصفة خاصة تمكنت من شن هجمات متتالية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين على مواني مصر والشام .

وكان من غير اللائق أن يصمت المماليك إزاء القرصنة الصليبية التى تخرج من قبرص للإغارة على السفن الإسلامية والمواني الإسلامية في مصر و الشام؛ ولذلك عزم الأشرف برسباي السلطان المملوكي على فتح جزيرة قبرص، فأرسل إليها ثلاث حملات تعد من أعظم الحملات والعمليات الحربية في عصر المماليك البرجية، وكانت الحملة الأولى سنة 827هـ/1423م حملة استكشافية عادت بغنائم ثمينة وأحرقت بعض السفن للقبارصة .

وفي السنة التالية مباشرةً شن المماليك حملتهم الثانية وأحرقوا وأسروا واستولوا على بعض الحصون وفي السنة التالية مباشرة 829هـ/1425م كانت الغزوة الثالثة وهي الغزوة الكبرى وانطلقت من القاهرة إلى ساحل بولاق إلى الإسكندرية ودمياط في منتصف شهر شعبان من هذه السنة ونزلت هذه القوة الإسلامية البحرية قبرص ووصلت إلى ميناء اللمسون (ليماسول) فاستولى عليه المسلمون ثم قصدوا الجزيرة للإستيلاء على عاصمتها، فتلقاهم القبارصة عند (خيروكيته) من الشمال الشرقي من (ليماسول) وهناك حلت هزيمة ساحقة بالقبارصة الصليبين نتج عنها وقوع ملك قبرص (جانوس) نفسه أسيرًا في أيدي المسلمين الذين واصلوا تقدمهم نحو العاصمة نيقوسيا ففتحوها وأعطوا الأمان لأهلها وأصبحت قبرص من ممتلكات المماليك البرجية وسلطانهم الأشرف برسباي وعاد الجيش المنتصر بأكثر من ثلاثة آلاف أسير على رأسهم (جانوس) ملك قبرص " ووصل المجاهدون القاهرة وصحبتهم صاحب قبرص في غاية الذل والهوان والتنكيل وقد زينت البلد" وكان السلطان برسباي يبكي من شدة الفرح وبكى الناس لبكاءه وصار يكثر من الحمد والشكر لله وارتجت القاهرة وماج الناس في كثرة السرور، وشاهد المؤرخ ابن تغري بردي بنفسه السلطان الأشرف برسباي والفرحة الغامرة التي عمت مصر والعالم الإسلامي كله لفتح قبرص، وعقب ذلك بقوله " وكل ذلك والنصارى تكذب هذا الخبر وتستغربه من أسر ملك قبرص وهزيمته على هذا الوجه " ، وقد ظلت قبرص تابعة لسلطنة المماليك وعين عليها الأشرف برسباي حاكمها السابق جانوس بعد الإفراج عنه سنة 830هـ/1416م إثر دفع فدية كبيرة وشريطة أن يحكم قبرص باسم السلطان المملوكي برسباي، واستمرت قبرص تابعة للمماليك إلى سنة 895هـ/1489

م، حيث آلت فيها قبرص إلى البنادقة ولكن مع دفع الجزية المفروضة عليها إلى المماليك وإرسالها إلى القاهرة حتى سنة 923هـ/1517م وبعد ذلك حول البنادقة الجزيرة الى السلطان العثماني .
وقد بالغ برسباي في فرض الضرائب على سفن الأجانب، حتى ضج هؤلاء وهمت فرنسا باستدعاء جميع تجارها من مصر، فخاف على تجارة البلاد من الكساد فنظر في مطالبهم، وفي سنة 841هـ/1438م مات برسباي وولي من بعده ابنه الفتى الذي لم يستطع أن يحتفظ بالعرش أمام نفوذ أقوى الأمراء وهو جقمق، الذي تولى السلطنة بعد قليل وكان حكم جقمق معتدلا ً إذا قيس بحكم برسباي، كما عُرف عن جقمق تدينه وورعه، فحرم المعاصي و شرب الخمور، وفي عهد جقمق تحسنت العلاقات بين دولة المغول التيمورية والدولة المملوكية، وتبادل الطرفان السفراء كما غزا المسلمون جزيرة رودس دون أن يتمكنوا من فتحها، وبعد وفاة جقمق تولى عدة سلا طين لم يكن لهم من الذكر ما يهم التاريخ، حتى تولى الأشرف قايتباي من سنة 872هـ/1468م حتى عام 902هـ/1496م، وهو يعد أطول سلاطين هذه الدولة حكمًا وكان شجاعًا قويًا يحبه قادة الجيش، كما كان محبًا للعمارة ولم يضاهي عصره في المباني المملوكية جمالا ً سوى عصر الناصر محمد بن ق لاوون البحري .

فتح رودس

بعد وفاة السلطان الأشرف برسباي تولى السلطنة الظاهر جقمق وكان الظاهر يود استكمال فتوحات سالفه الأشرف، فقرر أن يفتح ويضم جزيرة رودس؛ فجهز ثلاث حملات بدأت سنة 844هـ/1440م، وفيها خرج الأسطول المملوكي من ثغر دمياط إلى جزيرة قبرص، حيث تزود بها بما يحتاجه من معدات لحصار رودس، ثم مضى الأسطول إلى جزيرة رودس، وكان أهلها قد علموا بمجيء جقمق فاستعدوا للحرب وأجهزوا للقتال، فكان بينهم قتال شديد طوال ذلك اليوم، فقتل من المسلمين اثني عشر مملوكًا وجرح خلق كثير، على الجانب الآخر من الصليبيين فقتل منهم ما لايعد ولا يحصى لكثرتهم، فلما خلص المسلمون بعد تعب عظيم اجتازوا بقرية من قرى رودس، فنهبوا و سبَوا وقتلوا وأسروا وتوجهوا عائدين إلى دمياط قاصدين القاهرة وهم راكبوا السفن على وجه البحر حتى وصلوا إلى ساحل القاهرة، وانكشف الخبر على أن الذين توجهوا لا طاقة لهم بأهل رودس لكثرتهم، وأشار ابن تغري بردي إلى سبب هذه الغزوة، فذكر أنها بسبب كثرة عيث الصليبيين في البحر واستيلائهم على مراكب التجار.
وفي سنة 847هـ/1443م أرسل السلطان جقمق حملة أخرى إلى رودس فتمكنت من تخريب عدد من القرى وأسر بعض من الجند الصليبي وصاروا

يقولون لو كنا جمعًا لأخذنا رودس، وقد دفع هذا القول السلطان جقمق إلى تجهيز وإعداد المراكب الحربية بدار صناعة السفن ببولاق أبو العلا، ولما تجهزت هذه المراكب وكمل عددها اختار من المماليك السلطانية عددًا كبيرًا وجهزهم بالأسلحة من الرماح والسهام وغيرها، وخرج مع هذا الجيش عدد كبير من المطوعة ووصلوا إلى جزيرة رودس سنة 848هـ/1444م وحاصروا وضيقوا الخناق عليها وساعدهم فيه ما تم من إعداد جيد لهذه الحملة الثالثة والأخيرة زمن المماليك، واستمر القتال بين الجانبين لعدة أيام وقتل من الجانبين خلقًا كثيرًا، غير أن رودس لا يزداد أمرها إلى قوة لعظم استعداد أهلها للقتال، وقد بين ابن تغري بردي أن الميرة - الإمداد والتموين- كانت برودس وتأتيها فتزيدها قوة.

وقال الدكتور عبد الفتاح عاشور أن المساعدات التي تلقتها رودس من العالم المسيحي الغربي حالت دون سقوطها في أيدي المسلمين؛ مما جعل قادة الحملة المملوكية يقررون العودة إلى القاهرة حرصًا على سلامة قواتهم ولأن صليبي رودس تعهدوا لجقمق بعدم العدوان على السفن والتجارة المسلمة، وقد ظلت العلاقات بين الإسبتارية برودس وبين المماليك في مصر والشام تتأرجح بقية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بين الهدوء حينًا والعداء أحيانًا ، ولم يحجم الإسبتارية في كثير من الأوقات عن الإغارة على سفن المسلمين كما حدث سنة 869هـ/1464م و 916هـ/1510م، ولكن دولة المماليك كانت عندئذ في خريف عمرها لا تقو على الإنتقام بعد أن تأثرت ماديًا وحربيًا لإكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فضلا ً عن الخطر العثماني الذي أخذ يهدد حدودها الشمالية، ولم يهدأ الصليبيون حتى تمكنوا من إكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند سنة 904هـ/1498م للوصول إلى الشرق وتجارته بعيدًا عن طريق مصر والبحر الأحمر، وحدث هذا مع البرتغاليين وبمعونة الحبشة المسيحية وعلى إثر ذلك تحولت التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح وكان لذلك أسوء الأثر في الحالة السياسية والإقتصادية في مصر إذ تكدست حاصلات الشرق الأقصى بالإسكندرية ودمياط دون أن تجد التجار الغربيين الذين يحملونها إلى أوروبا ولقد كان في طليعة البواعث التي حرضت البرتغاليين على المجيء إلى الهند الرغبة في محاربة الإسلام ونشر المسيحية والتنصير وتقويد دعائم الإسلام والقضاء عليه بالإضافة إلى احتكار تجارة التوابل.

* * * *

قنصوه الغوري يحارب البرتغاليين

يبدو أن السلطان الغوري كان حسن الظن ببابا النصارى إذ بعث إليه يشكو من الأعمال الإجرامية للبرتغاليين الذين أخضعوا ثغورًا على الساحل الغربي

من بلاد الهند وجزيرة هرمز عند مدخل خليج فارس (الخليج العربي) وهاجموا عدن ومصوع وأخذت سفنهم تجوب البحر الأحمر وتسطو على سفن مصر وتستولي عليها، وهددوا المسلمين تهديدًا عظيمًا، ولكن السلطان الغوري لم يدرك أن بابا روما والغرب هم سبب هذا البلاء وأساسه، ولما لم تفد هذه الشكوى شيئًا جهز حملة بحرية كبيرة أرسلها في البحر الأحمر وهاجمت البرتغاليين عند سواحل الهند سنة 913هـ/1507م وانتصر المسلمون على البرتغاليين وأسر القائد البرتغالي، وكانت هذه المعركة جنوب بومباي، وفي العام التالي 915هـ/1509م، ثأر البرتغاليون لهزيمتهم في موقعة (ديو) تلك الجزيرة الصغيرة التي تقع على ساحل الهند إلى الشمال من بومباي، وفي هذه المعركة قُتل أكثر العسكر المملوكي وتُهبت مراكبهم كلها، فتنكد السلطان لهذا الخبر.

وبذلك يكون البرتغاليون قد حققوا أغراض الصليبية العالمية بالقضاء على دولة المماليك إقتصاديًا تمهيدًا للقضاء عليها سياسيًا، وهذا هو ما تحقق فعلا ً ، فعلى الرغم من محاولات الغوري الخروج من هذا المأزق إلا أنها كانت محاولات محدودة لم يُكتب لها النجاح، مما ثبت من ضياع تفوق مصر التجاري في البحر الأحمر و شرق البحر المتوسط وأدى إلى ذبول تجارة مصر مع الشرق الأقصى والغرب الأوروبي وهذا بدوره مهد لسقوط المماليك على أيدي سليم الأول العثماني 923هـ/1517م.

* * * *

الحرب السنية الشيعية (العثمانية الصفوية)

امتازت العلاقات العثمانية المملوكية بالود الشديد منذ أن قامت الدولة العثمانية وأخذت على عاتقها فتح بلاد البلقان، ونشر الإسلام في أنحائها، وخطب السلاطين العثمانيين ود السلاطين المماليك باعتبارهم زعماء العالم الإسلامي والقائمين على حماية الخلافة الإسلامية، واعترفوا لهم بالأولوية السياسية والدينية، بينما خططوا لأنفسهم دورًا متواضعًا وهو دور البكاوات حماة حدود ديار الإسلام.

هذا وقد ظل المماليك ينظرون إلى تحركات العثمانيين الجهادية كجزء من المسألة الإسلامية العامة، ولما فتح العثمانيون القسطنطينية سنة 857هـ /1453م اعتبر المماليك ذلك نصرًا عظيمًا لعامة المسلمين، واحتُفل في القاهرة بهذا الحدث احتفالا ً رائعًا.

شكل فتح القسطنطينية الحد النهائي للعلاقات الودية بين المماليك و العثمانيين؛ فعند ذلك طويت صفحة العلاقات الجيدة بين الدولتين وفتحت صفحة جديدة سادها العداء بفعل تصادم المصالح، لاسيما بعد أن أوقف العثمانيون فتوحاتهم في شبه جزيرة البلقان، وتحولوا إلى آسيا الصغرى لا

ستكمال ضمها إلى ممتلكاتهم، وذلك في سبيل تسهيل تمويل حملاتهم الذاهبة إلى إيران لمحاربة الصفويين الذين كانوا قد فرضوا التشيع على الإ يرانيين وأخذوا يحاولون التمدد نحو الأناضول والعراق لنشر مذهبهم ونتيجة لضم العثمانيين للجزيرة الفراتية فُتح الباب أمامهم للتمدد باتجاه الأراضي العربية لتأمين خطوط جديدة في الشام والعراق تصل إلى المحيط الهندي، ويرتبط بهذه القاعدة ضم الأراضي المملوكية وموانيء قيلقية؛ لأن من شأن ذلك أن يوفر لهم طريقًا بحريًا يسهل عليهم تمويل حملاتهم سالفة الذكر.
دارت بين العثمانيين والمماليك بضعة حروب ما بين سنتي 888هـ-986هـ / 1483م-1491م، نتيجة الخلافات الحدودية وانتهت بعقد اتفاقية سلام بين الدولتين بوساطة السلطان الحفصي أبي يحي زكريا ابن يحي إلا أن بروز القوة الصفوية الشيعية على المسرح السياسي في أوائل القرن السادس عشر الميلادي جعل العلاقة بين العثمانيين والمماليك تدخل في طور جديد؛ ففي سنة 913هـ/1507 هاجم الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي مناطق الحدود الشمالية الشرقية الفاصلة بينه وبين المماليك مستغلا ً الظروف الإ قتصادية الصعبة التي كانت مصر والشام تمر بها آنذاك، فهاجم ملطية لكنه فشل في احتلالها، وفي سنة 918هـ/1512م عاد الصفويون الكرة على المماليك، فدخلوا حدود دولتهم حتى وصلوا إلى البيرة ورفض الشاه إسماعيل الدخول في مفاوضات مع السلطان المملوكي من أجل تبريد الجبهة وحصل في هذه الفترة أن توفي السلطان العثماني بايزيد الثاني الذي لم يقدر خطورة أطماع الصفويين واعتلى ابنه سليم الأول العرش الذي كان واعيًا ومدركًا للخطر الصفوي وقد عزم على استئصال هذا الخطر قبل أن يستفحل، كان السلطان المملوكي آنذاك هو قنصوة الغوري، فلما بلغه خبر وفاة بايزيد الثاني حزن حزنًا شديدًا وبكى عليه ثم صلى الناس عليه صلاة الغائب في القلعة، كما صلوا عليه بعد صلاة الجمعة في الجامع الأزهر وجامع الحكم بن طولون.
كان كل انتصار يحققه العثمانيون على الصفويين يعني هزيمة قاسية للمماليك ويؤدي إلى الإنتقاص من هيبتهم بصفتهم سلاطين المسلمين وحماة الخلافة، كما أن تهديد الصفويين لكليهما لم يخفف مطلقًا من التناقضات بينهما فتصرفت كل دولة بمعزل عن الأخرى، وفي 2 من شهر رجب 920هـ الموافق 23 من أغسطس(آب) 1514م، انتصر العثمانيون على الصفويين في موقعة جالديران وقهقروهم نحو إيران فكانت تلك المفاجأة الغير متوقعة للمماليك فلم يبتهجوا لهذا الإنتصار وخاب أمل السلطان قنصوه الغوري الذي كان يود أن يقوم بدور الوسيط بين العثمانيين و الصفويين ويوجه السياسات العامة في المنطقة لصالح الحكم المملوكي،

وكان السلطان الغوري يدرك تمامًا أن المنتصر من الجانبين سيعمل على تصفية الموقف في المشرق العربي وذلك يحتم من الاصطدام بالمماليك ومن ثم كان عليه أن يتخذ موقفًا من التطورات السياسية والعسكرية السريعة فرأى أن يلتزم الحياد تاركًا الدولة العثمانية وحيدة في مواجهة الصفويين دون تبصر بنتائج ما قد يقوم به الشاه إسماعيل في حال إنتصاره من أعمال عدوانية متزايدة ضد المماليك وحاول السلطان العثماني سليم الأ ول استقطاب الغوري إلى جانبه، فأرسل بعثة عثمانية إلى القاهرة وصلتها في شهر ربيع الآخر سنة 920هـ/ (آيار) مايو 1514م، حاملة إقتراحًا بعقد تحالف بين العثمانيين والمماليك لمحاربة الصفويين ولكن المماليك رفضوا الإقتراح وتمسكوا بسياسيتهم مع تفضيل اتخاذ موقف الإنتظار، اعتبر العثمانيون سياسة المماليك هذه مظهرًا من مظاهر العداوة، وأخذوا يعتبرونهم العدو الرئيسي، وسعى السلطان سليم الأول لإيجاد سبب لفتح باب الحرب مع الدولة المملوكية والقضاء عليها في سبيل توحيد الجبهة الإس لامية السنية في مواجهة الصفويين الشيعة في إيران ومواجهة الخطر البرتغالي المتزايد في البحار الإسلامية كذلك، فبادر السلطان سليم إلى الا ستيلاء على إمارة ذي القدر التركمانية الأناضولية المشمولة بحماية المماليك والتي تقع على حدود الدولتين العثمانية والمملوكية، كما استغل تطلع شعوب المشرق العربي إلى العثمانيين كمنقذين من الحكم المملوكي الذي اصبح متعسفًا يتقرب من عامة الناس.

بالمقابل أزعج ضم سليم الأول إمارة ذي القدر قنصوه الغوري فاعتبر تصرفه هذا بمثابة إعلانه الحرب، وقرر أن يستعيد هيبته في المنطقة فنادى بالتعبئة العامة، لكنه قوبل بعرقلة الناس في مصر لتدابير التعبئة هذا وبميل الناس إلى العثمانيين؛ حتى أن صناع الأسلحة أقفلوا دور صناعتهم وتعالت في الشوارع تهديدات وشتائم موجهة صوب السلطان وانخفضت درجة الإنضباط في الجيش بشكل كبير، ورفض الجنود المسير لقتال العثمانيين قبل حصولهم على المال والمكافآت واللحوم، وأخذوا في التمرد وعاثوا في الأرض فسادًا.

أما في الشام فقد أخذت المناطق الشمالية تخرج عن طاعة المماليك وتنضم طوعًا إلى العثمانيين وبدأ كثير من الأمراء يتعاطفون مع العثمانيين ويقيمون العلاقات السرية معهم نتيجة لهذه العوامل أيقن الغوري أنه غير مستعد لخوض غمار الحرب ضد العثمانيين الأقوياء، لكن إصرار السلطان سليم الأول على الحرب جعل الغوري يحاول التحالف مع الصفويين ضد العدو الواحد وما أن بلغت أخبار هذه المحاولة أسماع سليم الأول حتى اعتبر أن الغوري طعن الدولة العثمانية وأهل السنة والجماعة من الخلف، فأعلنه ب

الحرب متهمًا إياه بخيانة العالم الإسلامي.
خرج السلطان قنصوه الغوري من مصر إلى الشام للقاء العثمانيين والحيلولة دون سيطرتهم على البلاد فالتقى الجمعان عند مرج دابق شمالي حلب حيث دارت بينهما معركة طاحنة في 25من شهر رجب 922هـ / 8من أغسطس(آب) 1516م وأفضت هذه الحرب إلى هزيمة المماليك وانتصار السلطان سليم الأول ومقتل السلطان الغوري نفسه، وعمت الفوضى في صفوف الجيش المملوكي، فالتحق قسم من المماليك بالجيش العثماني في حين لاذ الباقون بالفرار إلى مصر.
بعد هذا الإنتصار العثماني ضم سليم الأول عينتاب وحلب وحماة وحمص ودمشق وبيت المقدس وغيرها، وكان السكان محتفلون بمقدمه بصورة لم يألفها أي سلطان عثماني من قبله، وبعدها انتخب المماليك بعد مقتل الغوري السلطان طومان باي خلفًا له، فعرض عليه السلطان سليم الأول مجددًا أن يعترف المماليك بسيادة العثمانيين ودفع خراج سنوي لهم، فأبى طومان باي فبرز إليه سليم الأول فهُزم طومان باي على حدود الشام الجنوبية وانسحب بسرعة إلى القاهرة.
اتخذ المماليك رباطهم الأخير في الريدانية وهي قرية صغيرة تقع على الطريق المؤدية إلى القاهرة وفي 29 من ذي الحجة 922هـ / 22من يناير(كانون الثاني) 1517م دارت بين الجيشان معركة طاحنة انتصر العثمانيون برغم الدفاع المستميت للمماليك ووقع طومان باي أسيرًا في يد العثمانيين بسبب خيانة أحد أتباعه له فعامله السلطان سليم الأول في البداية معاملة كريمة لكنه أذعن في النهاية لإلحاح بعض القادة والأمراء فأمر بإعدامه فشُنق على باب زويلة، وبمقتل طومان باي سقطت دولة المماليك في قبضة السلطان العثماني سليم الأول نهائيًا في يناير (كانون الثاني) 1517م.

فنون العمارة في العصر المملوكي البرجي (الجركسي):

مسجد ومدرسة السلطان الأشرف برسباي

يقع مسجد السلطان الأشرف بمدينة الخانكة بمحافظة القليوبية، وكانت هذه المدينة سابقًا تسمى الخانقاه، وتغير المسمى الحرفي حتى وصلت لما هي عليه الآن، أنشأ الأشرف برسباي هذه المدينة (الخانكة) لتكون بديلة القاهرة في مركز الحكم وأنشأ المسجد بها ليكون مركزًا لتعليم أمور الدين والآداب الحياتية وتدريب الجند.
بني هذا المسجد في عام 841هـ/1437م، على بُعد 15 كيلومتر شمالي القاهرة، وقد أبدع المهندسون في عمارة هذا المسجد، يتكون هذا المسجد من صحن مكشوف ومصلاة فسيح تبزغ الشمس فيه لتصل إلى كل جوانبه،

ويحيط بهذا الصحن أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يشتمل على ثلاثة صفوف من العقود المحمولة على أعمدة رُخامية، ويتكون كلا الرواقين الجانبيين من صفين كما يتكون رواق المؤخرة من صف واحد، ويُغطي رواق القبلة سقف من الخشب على شكل مربعات، وقبال منقوشة، ويكسو الجزء السفلي من حوائطه وزرة من الرخام الملون ويتوسطها محراب رُخامي .
والواجهة الرئيسية للمسجد تشرف على الطريق العام، وبها المدخل الذي تغطيه مقرنصات جميلة، ويُحلى صدرها بأشرطة من الرخام الأبيض والأسود بأعلاها طراز مكتوب به تاريخ الفراغ من عمارة هذا المسجد، وإلى يمين المدخل سبيل يعلوه كتاب وإلى يساره تقوم مئذنة مكونة من ثلاث طبقات مماثلة لمئذنة مسجد بشارع المعز لدين الله .
وللمسجد ثلاث وجهات أخرى بمنتصف الواجهة الغربية منها مدخل آخر، كان لهذا المسجد دورة مياة عتيقة منفصلة عنه لازالت محتفظة بمعالم تخطيطها القديمة، وقد تعرض هذا المسجد للتصدع بسبب عوامل الزلازل فضلا ً عن عدم العناية، إلا أن إدارة حفظ الآثار العربية تداركت هذا المسجد وهو في ح الة تصدع شديد فقامت بترميمه وإصلاحه إصلاحًا شاملا ً ، حيث أصبح كما هو الآن والجامع يضم المسجد والمكتبة الضخمة وهي جهة اليمين من الباب الرئيسي للمسجد، ولها باب خشبي سميك طوله ستة أمتار وعرضه مترين ونصف المتر، وضمت المكتبة عددًا من الكتب التاريخية القديمة التي كُتبت في عهد الأشرف بواسطة العلماء المعاصرين لها والذين أثاروا فترة ولا يته علميًا مثل تاريخ المقريزي وفتح البار لابن حجر العسقلاني ومؤلفات جلا ل الدين السيوطي فضلا ً عن كتب أخرى هذه الكتب احتفظت بها، كما يضم عدد من الغرف والأروقة المنفصلة والتي كانت تُعد للتدريس وقراءة القرآن الكريم ودروس العلم الشرعي، والمسجد له سبيل مسقى كبير وعتيق ، ويُعد من أهم أسبلة العصر المملوكي، تم هدم بعضًا منها بمرور الزمن، ولكن لاتزال آثارها باقية حتى الآن وهو مكون من طبقتين بها مكان المزملاتي وهو الشخص المعين من قبل منشيء السبيل لرفع المياه من فتحة البئر وكان سبيل الجامع يُستخدم قديمًا في سقاية المتصوفة، وطلاب العلم الذين يرتادون مدرسة الخانكة ومسجد المدينة وأيضًا لعابري السبيل والفقراء و المساكين مما يرتادون التكايا ويحضرون الولائم بالمدينة بعد أن صارت مركزًا مدنيًا ودينيًا .

مدرسة الجامع

ضم المسجد كما عادة مساجد الدولة المملوكية مدرسة لتعليم القرآن الكريم والعلوم الشرعية والحياتية ويضم المسجد العديد من الغرف التي خصصت لمريدي المسجد ولخدمه العاملين عليه، وقد تشرف بعلماء العصر المملوكي

وخاصة الذين عاصروا الأشرف برسباي، فحظيت مدرسة المسجد بعلوم التفسير والفقه والتوحيد والسيرة، ورقائق خاصة من علماء الصوفية الذين اشتهرت بهم المدينة خلال تاريخها ولازالت وزارة الأوقاف المصرية تقوم بتنفيذ أنشطة دينية وإجتماعية حتى هذه اللحظة .

قلعة قايتباي بالأسكندرية

تقع هذه القلعة في نهاية جزيرة فاروس بأقصى غرب الأسكندرية و شُيدت مكان منارة الأسكندرية التي تهدمت سنة 702هـ بعد الزلزال المدمر الذي حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد بدأ السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي ببناء هذه القلعة في سنة 882هـ وانتهى بنائها سنة 884هـ، وكان سبب إهتمامه بالأسكندرية هو كثرة التهديدات التي تحيط بمصر من تجاهها من قِبل الدولة العثمانية، والتي هددت المنطقة العربية بأسرها، وقد اهتم السلطان قنصوة الغوري بالقلعة فزاد من أهميتها وقام بشحنها بالأسلحة .

وصف القلعة :

تأخذ هذه القلعة شكل المربع وتبلغ مساحتها 150م × 130م يحيط بها البحر من ثلاث جهات، وتحتوي هذه القلعة على الأسوار والبرج الرئيسي من الجهة الشمالية الغربية، وتنقسم الأسوار إلى سور داخلي وآخر خارجي، السور الداخلي يشمل ثكنات الجند ومخازن السلاح، أما السور الخارجي للقلعة فيضم في الجهات الأربعة أبراجًا دفاعية ترتفع إلى مستوى السور باستثناء الجدار الشرقي الذي يشتمل على فتحات دفاعية للجنود، ويتخذ البرج الرئيسي في الفناء الداخلي شكل قلعة كبيرة مربعة الشكل طول ضلعها 30 متر وارتفاعها 17 متر، وتتكون القلعة من ثلاث طوابق مربعة الشكل وتوجد في أركان البرج الأربع أبراج نصف دائرية تنتهي من أعلى بشرفات بارزة، وهذه الأبراج أعلى من البرج الرئيسي تضم فتحات لرمي السهام على مستويين، ويشغل الطابق الأول مسجد القلعة الذي يتكون من صحن وأربعة إيوانات وممرات دفاعية تسمح للحنود للمرور بسهولة خلال عمليات الدفاع عن القلعة، وكان لهذا المسجد مئذنة ولكنها انهارت مؤخرًا، أما الطابق الثاني فيحتوي على ممرات وقاعات وحجرات داخلية، ويضم الطابق الثالث حجرة كبيرة لمقعد السلطان قايتباي يجلس فيها لرؤية السفن على مسيرة يوم من الأسكندرية يغطيه قبو متقطع، كما يوجد في هذا الطابق فرن لإعداد خبز البّر المصنوع من القمح، وكذلك طاحونة لطحن الغلال للجنود المقيمين في القلعة، وقد جدد السلطان قنصوة الغوري القلعة وزاد من حمايتها وقد أهملت هذه القلعة في فترة الخلافة العثمانية في مصر.

تم بحمد الله
في
15نوفمبر(تشرين الثاني) 2018
الأسكندرية

للتواصل مع الكاتب : محمد أمين

أعمال الكاتب :
- رواية المدفن .. دار لوغاريتم للنشر والتوزيع .
- المماليك البحرية والبرجية في الشرق الإسلامي (كتاب تاريخي موثق) .

Face book Official Account:
www.facebook.com/ BusnissMan
(Muhammed Amin)

Face book Official Page : facebook.com/ ElbashKateb

Instagram : muhamedaminoffical

المصادر
1- الدكتور يسري أحمد عبد الله زيدان ، الحروب الصليبية وتاريخ الشرق الإسلامي الحديث .
2- الدكتور جمال فوزي محمد ، الحروب الصليبية وتاريخ الشرق الإسلامي الحديث .
3- ابن الأثير ، الكامل ج 4 .
4- الدكتور حسن أحمد محمود ، الإسلام والحضارة العربية في آسيا

الو سطى .
5- ابن إياس ، بدائع الزهور .
6- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة .
7- ابن واصل ، مفرج الكروب , السابق .
8- المقريزي ، السابق , الخطط , السلوك .
9- العيني ، عقد الجمان .
10- النويري ، نهاية الأرب .
11- ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد .
12- العمارة في مصر الإسلامية د . غادة المسلمي .
ومن المصادر أيضًا (بيبرس الدوادار، ابن أيبك، ابن الوردي، ابن كثير، سبط ابن الجوزي، ابن الفرات، ابن العميد، الذهبي، ابن عبد الظاهر، الكتبي، اليونيني، ابن شداد، ابن حبيب، ابن خلدون، أبو شامة، ابن العماد، ابن الصيرفي، د. سعيد عاشور، علي أدهم، ابن حجر، د. الساداتي، البدليسي، د. دراج)